# بنية الاستفهام في سورة الملـك - دراسة تحليليَّة فنّـيَّة

اعداد
د. عقيلة محمَد القرني
الأستاذ المُساعد - كلّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، جامعة طيبة - السعودية

Doi:10.33850/ajahs.2020.68017
الاستلام : ٣ / ١١ /٢٠١٩ القبول : ١٨ / ١٢ /٢٠١٩

**المستخلص :**

تسعى هذه الدراسة إلى درس الاستفهام في سورة الملك على أنّه بنية رئيسة ونسق عامّ، ينتظم الخطاب القرآني فيها من أوَّله إلى آخره؛ دون سواه من سائر الأساليب الإنشائيَّة الأخرى!؛ مع رصد علل الظاهرة، والوقوف على الدلالات البلاغيَّة التي خرج إليها الاستفهام، والإبانة عن مدى تعالقها مع مجموع القرائن والعناصر اللغويَّة المصاحبة لها؛ تحقيقًا لمقاصد السورة وما تتوخَّاه من غايات.

**الكلمات المفتاحيَّة**: دلالة- وعيد - قدرة - سورة الملك.

**Abstract:**

The study aiming at analysis and study of question form in Surah Al-Mulk as a basic structure and general rule where the Qura'nic address is thoroughly organized. To be a distinguished from other comprehensions styles. In addition to observing the Obvious reasoning and concentrating on the Rhetorical denotations in the question form. study and analysis of manifestation relationship with argumentations and its accompanied language factors for achieve the purposes of Surah Al Mulk.

**Key Words:** denotation – threatening – ability- God Dominion over all things (Al-Mulk ).

المقدّمة:

إذا كان الأسلوب -كما يعرّفه بعض روّاد الأسلوبيَّة المعاصرة- "مجموعة ألوان يصطبغ بها الخطاب؛ ليصل إلى إقناع القارئ، وإمتاعه، وشدّ انتباهه، وإثارة

خياله"[1]، فإنَّ القرآن في خطابه الروحي والفكري للنفوس -على اختلاف مداركها وتباين معتقداتها- لم يدع سبيلًا من طرائق التعبير، ولا فنًّا من فنون القول إلَّا سلكه ووظّفه بما يحقّق غايات الخطاب ومقاصد التنزيل؛ فوظّف في خطابه اللغة الموحية المؤثّرة، والتصوير الفنّي البارع، والأساليب على اختلاف تشكّلاتها خبرًا وإنشاءً، والإيقاع النغمي الفاتن الأخّاذ؛ وظّف كلّ ذلك في نظامٍ بديع، وائتلافٍ عجيب، يخاطب الفكر والوجدان معًا؛ لإقناع المتلقّين، واستمالة عقولهم، وعطف قلوبهم لقبول الخطاب، والتأثّر لمقتضيات الكلام؛ مهما كانت منازلهم وحظوظهم من الفهمِ والفطنة!.

ومن البنى الأسلوبيَّة التي اعتمدها القرآن في خطابه الفكر والوجدان، والتي تندرج تحت خصائص أساليبه البارزة على مدار الخطاب، بنية الاستفهام؛ إذ ليس هناك أسلوب أقوى من توظيف الاستفهام في سياق استثارته للفكر، وتحريكه للوجدان نحو إقامة تصوّرٍ إنساني كليّ عن الأشياء والوجود من حوله. وفي سياق إقناعه للكافرين المكابرين كذلك، ومقارعتهم بالحجّة، ودحض افتراءاتهم وما يتأوّلونه من مزاعم في القرآن ومن أُنزِل عليه. وما أكثر ما عمد إليه عند معالجته لموضوعاتٍ بأعيانها؛ تجليةً لحقيقتها، وترسيخًا لها في النفوس؛ كالعقائد والحجاج، والبعث والحساب، والامتنان بالنعم، والتدبّر والتفكّر في ملكوت الله وعظيم قدرته.

ولمـّا كانت بنية الاستفهام قد شغلت من السورة –التي نحنُ بصدد دراستها- فضاءً كبيرًا؛ نسبةً إلى عدد آيها الذي لم يجاوز الثلاثين، فامتدَّت إلى ما يقارب النصف من آياتها؛ وفي سلسلةٍ من الآيات تكاد تكون متّصلة؛ والذي تجلّت ظواهره –بصورةٍ بيِّنة- في النصيف الثّاني من السورة خاصَّةً؛ ممَّا جعلها تشكّل بحضورها اللافت -وعلى مستوى السورة كلِّها- بنية أسلوبيَّة، تُسفر عن نفسها لكلّ قارئٍ لها؛ لمـّا بدا لي ذلك، مع انصراف كثيرٍ من الدراسات التي تناولت الاستفهام في هذه السورة، إلى دراسة دلالاته التي خرج إليها خاصَّة؛ عن كونه بنية لغويَّة وأسلوبيَّة بارزة تفرض نفسها على صفحة النصّ القرآني، وعلى مستوى الخطاب الفنّي والدلالي، رأيتُ دراستها تحت عنوان: (بنية الاستفهام في سورة الملك: دراسة تحليليَّة فنّيـَّة).

وتكتسب الدراسة أهمّيتها؛ من حيث درسها وتحليلها فنّيًّا في سياقها، مع اعتبارٍ لمجموع القرائن اللغويَّة والسياقيَّة الأخرى المصاحبة لها؛ إبرازًا لتعالقها، ودورها –على مستوى الدلالة- في تحقيق مقاصد السورة وأغراضها الكلّيَّة التي انطلقت منها، وسعت إليها. وهو جانبٌ –على حدّ علمي- لم تعنَ به الدراسات التي تناولت مباحث

[1] الأسلوبية والأسلوب، المسدّي (ص٨٣).

الاستفهام في السورة،؛ حيث كانت عنايتها ترتكزُ –في المقام الأوَّل-على الدلالات البلاغيَّة التي خرج إليها.

ومن المسلّم به أنَّ المعاني المجازيَّة التي يخرج إليها الاستفهام، لا تُبين عن نفسها، عند انتزاع المعنى من سياقه؛ "فهناك في القول علاقات تقوم بين الكلمات في تسلسلها؛ تعتمد على خاصيَّة اللغة الزمنيَّة كخطّ مستقيم، يُستبعد فيه إمكانيَّة النطق بعنصرين في وقتٍ واحد؛بل تتتابع العناصر بعضها إثر الآخر، وتتآلف في سلسلة الكلام. وهذا التآلف الذي يعتمد على سلسلة الكلام يُطلق عليه (العلاقات السياقيَّة)"[٢].

ولا خلاف في أنَّ النصّ الأدبي ومنه النصّ القرآني يشكّلُ بنية لغويَّة، ولحمة متّصلة، بعضها آخذ برقاب بعض، في تسلسلٍ بديع، وإيقاعٍ فنّي متواتر، يتشكّل وفق السياق الذي يمليه الخطاب القرآني؛ حيث إنَّ معاني النصوص القرآنيَّة لا تتقرّر – غالبًا- من داخلها، ووفقًا لما تمليه لغتها المباشرة؛ وإنّما تتحكّم في تحديد معنى النصّ القرآني الكثير من الملابسات والقرائن. ويصبح الوقوف عند حدود الجملة لتحديد المعاني البلاغيَّة للاستفهام في القرآن، قاصرًا عن إيفاء المعنى حظّه، والعبارة حقّها، وعن الإحاطة بقيم الخطاب التعبيريَّة والدلاليَّة والتأثيريَّة.

وعليه، فإنَّ المنهج الذي ستخططّه هذه الدراسة، هو درس الظاهرة حسب تدرّجها في الخطاب القرآن الوارد في السورة؛ لا وفق أدواتها، وليس أيضًا وفق أغراضها المجازيَّة التي خرجت إليها؛ وذلك للصلة الوثيقة بين مجيء هذا الأسلوب نسقًا يكاد ينتظم السورة من أوَّلها إلى آخرها؛ ممَّا شكّل ظاهرة أسلوبيَّة طافية على السطح –على ما أمضينا القول- وبين تدرّج المضمون الفكري فيها؛ فمقاصد السورة وظلالها تتوالى في السياق، وتتدفّق بلا انقطاع؛ ممَّا يصعب معه تقسيمها إلى مقاطع، أو درسها حسب أغراضها ومقاصدها.

وتأسيسًا على ما سبق يتجلّى جانب من الأهداف التي تسعى هذه الدراسة إلى رصدها وتحقيقها:

- دراسة الاستفهام في السورة على أنَّه بنية رئيسة؛ تلفّ الخطاب القرآني في السورة من أوّله إلى آخره.
- دراسة بنية الاستفهام وتحليلها فنّيًّا في سياقها، مع اعتبارٍ لمجموع القرائن السياقيَّة والعناصر اللغويَّة المصاحبة لها.
- الوقوف على شيءٍ من أسرار التنزيل في انتحائه لهذا النوع من الأساليب في خطابه؛ ولاسيَّما في السورة المكِّيَّة.

---

[٢] البلاغة والأسلوبيَّة، محمَّد عبد المطلب، (ص ٣٠٧).

- الوقوف على الدلالات البلاغيَّة التي خرج إليها الاستفهام في السورة، والإبانة عن مدى تعالقها مع مقاصد السورة وما تتوخّاه من غايات.

وأمَّا المنهج الذي اعتمدته هذه الدراسة؛ فهو المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج الفنّي، والذي يتراءى لي أنَّه يتوافق –إلى أمدٍ بعيد- مع طبيعة الموضوع المعالج؛ من حيث وصف الظاهرة أوَّلًا، ثمَّ درسها وتحليلها فنّيًا؛ استكشافًا لآفاقها الدلاليَّة والجماليَّة، وما تؤول إليه من معانٍ، تعضد المقاصد الكبرى، التي تهدف السورة إلى تقريرها وتمكينها في النفوس.

(١)

مهاد نظري: في مفهوم الاستفهام والبنية:

البنية في اللغة: نقيض الهدم[٣]. وهي –كما يدلّ عليه ظاهر اللفظ- تحمل في تضاعيفها دلالة معماريَّة؛ وتعني: الكيفيَّة التي شيِّد على نحوها البناء.

وفي أبسط تعريفاتها تعني: "كلٌّ مكونٌ من ظواهر متماسكة، يتوقّف كلّ منها على ما عداه، ولا يمكنه أن يكون ما هو إلَّا بفضل علاقته بما عداه"[٤]. وكلَّما اجتمعت بعض العناصر في كلٍّ ما اجتمعت عنها أبنية، يتّسم تركيبها بالاطراد؛ هذا الكلّ هو ما يسمَّى بـ(النظام). فالبنية هي علاقات العناصر الداخليَّة في إطارها، ودخولها في نظام هو الذي يكفل لها استقرارها، ويضمن لها حركتها وتفاعلاتها داخل النظام ذاته، ويتيح لها أن تتوازن وتتعالق مع بنى أخرى تحكمها أنظمة خاصَّة. وبقدر النشاط الفعَّال الذي تمارسه هذه العناصر بدخولها في علاقات بعضها مع بعض، تمتلئ البنية غنًى وحيويَّة. وعليه، فمفهوم البنية يتوقّف على السياق بشكلٍ واضح؛ إذ إنَّ محور العلاقات لا يتحدّد مسبقًا؛ وإنَّما يختلف موقفه باستمرار داخل النظام الذي يضمّه مع سواه من العناصر؛ ونتيجة لذلك، فهي تتمتّع بالمرونة وإمكانيَّة تعدّد المعنى، وانفتاحها على أكثر من دلالة[٥].

وأمَّا الاستفهام، فهو من الفهم؛ والفهم: معرفتك الشيء بالقلب. واستفهمه: سأله أن يُفهمه[٦]. والفهم: حسن تصوّر المعنى[٧].

ويُراد به في الاصطلاح: استخبار؛ والاستخبار: "طلب خبر ما ليس عند المستخبر؛ وهو الاستفهام"[٨].

---

[٣] لسان العرب، ابن منظور، مادّة "بنى"، (١٦٠/٢).
[٤] علم الأسلوب والنظريَّة البنائيَّة، صلاح فضل، (٤٤٨/٢).
[٥] ينظر: المرجع السابق، (٤٤٨/٢-٤٥٠).
[٦] لسان العرب، ابن منظور، مادّة "فهم"، (٢٣٥/١١).
[٧] المعجم الوسيط، مادّة "فهم"، (٧٠٣/٢).
[٨] فقه اللغة، ابن فارس، (ص ١٣٤)؛ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، (ص ٣٢٦).

وعرّفه بعضهم بأنَّه: "طلب حصول صورة الشيء في الذهن؛ فإنْ كانت وقوع نسبة بين أمرين أو لا وقوعها، فحصولها هو التصديق، وإلَّا هو التصوّر"[٩].

وفرّق السكّاكي –في سياق حديثه عن الاستفهام- بينه وبين أنواع الإنشاء الطلبي الأخرى، التي ينضوي تحت أنواعها، برصد حركة المعنى فيه وفيما سواه، فقال: "فإنَّك في الاستفهام تطلب ما هو في الخارج؛ ليحصل في ذهنك نقشٌ له مطابق. وفيما سواه تنقش في ذهنك، ثمَّ تطلب أن يحصل له الخارج مطابق؛ فنقش الذهن في الأوَّل تابع، وفي الثاني متبوع"[١٠].

وهذه التفرقة تُبين عن خصوصيَّة الأداء في جملة الاستفهام، وأثرها الوظيفي في الكلام؛ فالمعنى عندما يبدأ ممَّا هو خارج ذهن المتكلّم، ثمَّ يعود إليه، يحدث معه الفهم والإفهام بصورة تتحقّق معها الفائدة؛ بينما ينتقل المعنى في الأنواع الطلبيَّة الأخرى: كالأمر، والنهي، والتمنّي، والنداء، من ذهن المتكلّم، لينتهي إلى ما هو خارجٌ عنه، فيتحقّق المطلوب بالاستجابة أو عدمها[١١].

هذا وقد شغلت مباحث الاستفهام بأدواته المتنوّعة ودلالاته المجازية التي يخرج إليها، حيّزًا كبيرًا من مصنّفات القدامى، فأطالوا الحديث عنها، والوقوف عندها؛ وهو أمرٌ يجسّد لنا حاجة الاستفهام في العربيَّة إلى مزيد تأمّلٍ وفضلِ عناية، ولاسيّما عند قراءة دلالاته المجازيَّة، أو معانيه الثواني، التي تشكّل فضاءً دلاليًّا في سياق الخطاب، والتي قد تخفى على كثيرٍ من أهل الاختصاص، فكيف بمن هو ليس من أهلِه!!. وفي هذا السياق يقول أحدهم مُشيرًا إلى خفاء دلالاته، وحاجتها إلى سبرٍ وطولِ تفتيش: "إنَّها [ يعني:معاني الاستفهام] في كثيرٍ من صورها، سوانح خفيَّةً أشبه بالأسرار الغامضة، تجري في النفس جريانًا خفيًّا، نَحسّها، ولا نستطيع وصفها!"[١٢].

ولقد نوّع الخطاب القرآني في استعماله لأدوات الاستفهام؛ دون أن يجنح إلى تكرير أداةٍ بعينها على مدار خطابه؛ وإنْ كان هناك تفاوتًا ملموسًا في توظيف أدواتها، أو في استعمال أداةٍ أكثر من أختها؛ وذلك حسب ما يمليه السياق ومقتضيات الحال؛ فقد تردّد استعمال الهمزة –في سورة الملك- في سبعة مواضع؛ بينما تردّدت الأدوات مجتمعة: هل، وأم، وكيف، ومتى، ومن، وأي، في عشرة مواضع؛ ويمكن تفسير ذلك بأنَّ الهمزة أمّ هذا الباب، والغالبة عليه؛ ولها من الخصائص ما ليس لسواها من سائر أخواتها؛ ما جعلها أعمّ الأدوات تصرُّفًا، وأكثرها استعمالًا؛ كما لفتَ إلى ذلك علماء

---

[٩] المختصر على تلخيص المفتاح، للخطيب القزويني، (٢٠٣/١).

[١٠] مفتاح العلوم، السكّاكي، (ص٣٠٤).

[١١] يُنظر: أسلوب الاستفهام ودلالاته البلاغيَّة في سورة الصافات، محمَّد أبو حمده، (ص٧).

[١٢] دلالات التراكيب، محمد أبو موسى، (ص٢١٧).

العربيَّة[١٣]؛ بل "ليس في أدوات الاستفهام ما إذا اجتمع بعده الاسم والفعل، يليه الاسم في فصيح الكلام إلَّا الهمزة!"[١٤].

وورد الاستفهام في القرآن الكريم بصورتيه: الحقيقيَّة والمجازيَّة. والصورة الثانيَّة وما تؤول إليه من معانٍ ثوانٍ، هي الأغلب في استعمال الخطاب القرآني لها. "قال بعض الأئمَّة: وما جاء في القرآن على لفظ الاستفهام، فإنَّما يقع في خطاب الله على معنى أنَّ المخاطب عنده علم ذلك الإثبات أو النفي حاصل. وقد يخرج الاستفهام عن حقيقته؛ بأنْ يقع ممَّن يعلم ويستغني عن طلب الإفهام"[١٥].

ويعني ذلك، أنَّ الاستفهام كثيرًا ما يستعمل في القرآن الكريم في غير بابه الذي وضع له، وعلى خلاف ما يقتضيه الظاهر؛ فالله تعالت عظمته "لا يستفهم خلقه عن شيءٍ؛ وإنَّما يستفهمهم ليقرّرهم ويذكّرهم أنَّهم علموا حقَّ ذلك الشيء؛ فهذا أسلوبٌ بديع انفرد به خطاب القرآن؛ وهو في كلام البشر مختلف!"[١٦].

وإذا ما تتبّعنا مسارات الاستفهام في سورة الملك، لوجدنا أنَّه خرج عن معناه اللغوي الحقيقي الإبلاغي، إلى معانٍ ودلالاتٍ مجازيَّة رحبة؛ كالتقرير، والتعجّب، والإنكار، والتقريع، والتهديد، والنفي، ولم يرد على صورته الحقيقيَّة، أو ما يقتضيه ظاهر الدلالة منه شيء!.

وما أراه قمين بالذكر ههنا، هو أنَّ الصيغة الاستفهاميَّة الواحدة ربَّما اشترك فيها أكثر من معنـى؛ فتحتمل أكثر من دلالة في آنٍ واحد؛ كالتقرير، والإنكار، والتوبيخ، وهكذا دواليك؛ على خلاف ما دأب كثير من البلاغيين على عمله؛ حين رهنوا كلّ صيغة استفهاميَّة بمعنًى واحد!. وإن كان هناك من العلماء من تنبّه إلى ذلك؛ كعبد القاهر الجرجاني حينما وقف على الاستفهام في قوله تعالى:ﱡﭐ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱠ [الأنبياء:٦٢] قال: "واعلم أنَّ الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان، وإنكار له لم كان، وتوبيخ لفاعله عليه"[١٧].

فضلًا عن أنَّ تلك الدلالات المجازيَّة، التي يترامى إليها الاستفهام في الخطاب القرآني، لا تُسفرُ عن نفسها على كلّ حال؛ وإنَّما منها ما هو غائرٌ عويصٌ، يعوزه إبحارٌ في سياقه وطول نفسٍ في التفتيش عنه؛ كي نمسك ببوادر المعنى، قبل أن تتولّد جملة الاستفهام؛ وألمح أحدهم إلى شيءٍ من ذلك، فقال: "إنَّ هذه المعاني تراها أحيانًا

---

(١٣) يُنظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، (٣٤٧/٢-٣٥٠؛ شرح المفصل، لابن يعيش، (١٥١/٨).

(١٤) البرهان في علوم القرآن، (٣٤٨/٢).

(١٥) المرجع السابق، (١/ ٣٢٨).

(١٦) المرجع السابق، (٣٢٧/٢).

(١٧) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، (ص١١٤).

تظهر واضحة في حدود الجملة التي وقعت فيها الأداة ...؛ ومنها ما ترى المعنى فيه لا يشخص لك بأحواله وتمامه، إلَّا إذا راجعتَ سياقًا طويلًا، ترى فيه خيوط المعنى تتولّد قبل الاستفهام، ثمَّ تأتي الأداة وكأنَّها تلخيصٌ وتركيز"[١٨].

ومن هنا، كان لزامًا علينا -كي تحقّق الدراسة مقاصدها، وتنفذ إلى المعاني الكامنة والظلال الدلاليَّة التي يترامى إليها الاستفهام في السورة- قراءة السياق القرآني كلّه، دون الوقوف عند حدود الجملة المفردة؛ فليس يخفى أنَّ التحليل الموضعي لجملة الاستفهام، التي نعالجها منتزعة من سياقها الذي وردت فيه –على ما ذكرنا- لا يخرج لنا سوى صورة قاصرة لا تفي بجماليَّات الخطاب القرآني وغاياته التي رامها؛ حين عدل عن نسق الإخبار إلى لونٍ من أساليب الطلب والإنشاء.

(٢)

بنية الاستفهام في سورة الملك

تجري السورة -في نسقها- على غرار السور المكّيَّة التي تعالج –في مجملها- قضايا التوحيد والعقيدة، واليوم الآخر وما يترتّب عليه من بعثٍ ونشور، وحسابٍ وجزاء. كما تعالج إنشاء تصوّرٍ جديد للوجود، وعلاقة الإنسان بخالقه وخالق الوجود؛ في تصوّرٍ شامل، لا يقف عند تخوم عالم الأرض ومداه الضيّق؛ وإنَّما جازه إلى مداراتٍ واسعة، وعوالم رحبّةٍ خلّاقة؛ فمن عالم الأرض، إلى عوالمٍ علويَّة في السموات، إلى عالم الآخرة، إلى خلائق خفيَّة؛ كعالم الجنّ، إلى عالمٍ بين السماء والأرض؛ كعالم الطير، إلى عالم الباطن؛ وهو عالم الغيب، الذي أحاط علمه بكلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ فيه!.

فهي بذلك سورة تهزّ في النفوس جميع الصور والانطباعات والرواسب الجامدة والهامدة المتخلّفة من تصورّ الجاهليَّة وركودها، وتفتح المنافذ هنا وهناك، وتنفضُ الغبار، وتطلق الحواس والعقل والبصيرة ترتاد آفاق الكون، وأغوار النفس، وطباق الجو، ومسارب الماء، وخفايا الغيوب[١٩]؛ فترى في ذلك كلّه يد الله الصانعة، الذي خلق كلّ شيءٍ فقدّره تقديرًا!!.

والقرآن في معالجته مثل تلك القضايا –وعلى دأبه في مراعاة أحوال المخاطبين ومقاماتهم- لم يسلك في نظم خطابه نهجًا واحدًا لا يزيغ عنه؛ بل راوحَ بين أساليبه، وزاوج بين فنونه –على أبعد ما تقتضيه صنعة البيان- في ائتلافٍ بديع؛ وعلى نسقٍ واحدٍ؛ من الكمال والإبداع واتّساق النظم!.

وعلى حين شكّلت الأساليب الخبريَّة النسق العامّ الذي ينتظم الصياغة القرآنيَّة؛ لنقل الفائدة إلى المخاطب، تأتي الأساليب الإنشائيَّة لكسر ذلك النسق، وتدفع بالنصّ

---

[١٨] دلالات التراكيب، (ص٢١٧).

[١٩] يُنظر: في ظلال القرآن، سيّد قطب، (ص ٣٦٢٩).

القرآني نحو الجانب التأثيري والانفعالي؛ ممَّا يثير في المخاطب حركة داخليَّة باطنيَّة، تدفعه إلى تحريك بوادر التأمُّل، والانقياد لمقتضى الكلام في صورةٍ حيَّةٍ بنَّاءة.

وإذا ما علمنا أنَّ القرآن الكريم –في مجمل آيه وسوره- يعتمد النسق الخبري عند تقديمه الشرائع الإلهيَّة، وما يتّصل بحياة الناس، وما ينفعهم في أمور معاشهم ومعادهم، وسوى ذلك؛ فإنَّه في هذه السورة، التي يسعى فيها إلى إنشاء تصوّرٍ -عن الوجود، وعن علاقة الإنسان بخالقه- جديد، قد مارس تلك القوَّة الضاغطة، التي يقول بها علماء الأسلوب؛ "بحيث لا يلقى الخطاب، إلاّ وقد تهيَّأ فيه ما يزيل عن المتقبّل حريَّة ردود الفعل"[٢٠]؛ فعدل بخطابه عن ذلك النسق الإخباري؛ وفي صورةٍ لا تكاد تخطئها العين؛ من خلال تكثيفه للبنى الإنشائيَّة الاستفهاميَّة، واعتمادها نسقًا فيما يقارب نصف آيات السورة؛ دفعًا بالمخاطب إلى مزيد تأمّلٍ وتدبّرٍ في بديع خلق هذا الملكوت العظيم وعظمة صانعه، ومراجعة الذات لموقفها الذي لا يساير الفطرة، وينتكسُ فيما يخالفها، واتّخاذ موقفٍ جديدٍ يتكيّف مع دعوات الخطاب القرآني وغاياته.

وإذا ما أردنا أنْ نمسك بخيوط المعاني المتولّدة عن الاستفهام في السورة، ومعرفة السرّ وراء شيوعه والدوران في فلكه، فلامناص من تلمّس أغراضها والمقاصد التي تسعى إلى ترسيخها، والوقوف –تحديدًا- عند طالعها الذي تفرّع عنه سائر صورها، وانشقّ عنه مختلف معانيها، وسائر العوالم الظاهرة والمغيبة، التي أيقظت منافذ الفكر والعقل في التنبّه إليها؛ "فكلّ حقائق السورة وموضوعاتها، وكلّ صورها وإيحاءاتها مستمدّة من طالعها، الذي جاء غاية في براعة الاستهلال والشمول":ﭐﱁ ﱂ ﱃ ﱄ مج مح مخ مم مى ﱊ [الملك:١] ؛ فـافتتحت السورة بما يدلّ على منتهى كمال الله تعالى، وتفرّده بالملك المطلق التامّ، الدالّ على تفرّده بالألوهيَّة المستوجبة لذلك؛ فهو افتتاح لخّص وأجمل ما وراءه، وأحاط بما ورد مفصَّلًا بعده[٢١].

فمن الملك والقدرة كان خلق الموت والحياة والابتلاء بهما. وكان خلق السموات السبع الطباق، وتزيينها بالمصابيح، وجعلها رجومًا للشياطين، وإعداد جهنم مستقرًا لهم، ومن والاهم من مردة الإنس. وكان العلم بالسرّ والجهر. وكان جعل الأرض ذلولًا للبشر، وما أجرى فيها من الخسف والحاصب والنكير على من كذّب بآيات الله من الأمم السابقة. وكان إمساك الطير في السماء. وكان خلق الإنسان، وتزويده بوسائل العيش ومنافذ الاعتبار من السمع والبصر والأفئدة. وكان الذرء في الأرض

---

(٢٠) الأسلوبية والأسلوب، (ص٨١).

(٢١) يُنظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٧/٢٩).

والحشر. وكان الاختصاص بعلم الآخرة. وكان عذاب الكافرين. وكان الماء الذي لا حياة دونه، والذهاب به متى أراد!.

ومن آثار تصريفه لهذا الملكوت العظيم، ومن بدائع قدرته، التي ساقها شواهد بيّنات على كمال ربوبيَّته المستوجبة لألوهيَّته؛ بما يدحض مزاعم المشركين وافتراءاتهم الباطلة، وتجنّيهم على الحقّ بما لا علم لهم به، أنّه خلق الموت والحياة، وما يقتضيه ذلك الخلق من تصريفٍ مطلقٍ وكمال تدبير، جاء الإخبار عنه في سياق جملة خبريَّة، ثمَّ أعقبها بجملةٍ استفهاميَّة، في سياق الإبانة عن علّة ذلك الخلق من إماتةٍ وإحياء:ﭐﱡﭐ نح نخ نم نى ني هج همهى هي يج يحﱠ [الملك:٢ ]؛ فما كان الخلق مصادفة بلا غاية، ولا جزافًا بلا تدبير؛ بل إنَّ الأمر يؤول إلى الابتلاء والامتحان والتمحيص؛ لأجل ما يعقب ذلك من جزاءٍ على العمل. ومعلومٌ أنَّ العمل لا يتحقّق بدون حياةٍ أولى، كما أنَّ الجزاء الأوفى لا يكون إلَّا بعد الموت. فالاستفهام في الآية، جاء لتحريك النفوس وإيقاظ مشاعرها؛ للتنبّه إلى تلك الحقيقة، والحضّ على ملاحظتهما، ودفعها لإحسان العمل، والتفاني في إتقانه، والارتقاء به إلى أعلى مقامات الإحسان.

وفي تقديم الموت على الحياة فوائد تتساوق مع الغرض من الاستفهام؛ من كونه أرجى لإحسان العمل، والاعتناء بكمال قبوله؛ كما يتساوق مع ما أخبر الله عنه -في الآية قبلها- من قدرته التامَّة، وتصرّفه المطلق في كلّ شيء؛ إذ إنَّ "معنى القدرة في الإماتة أظهر وأقوى؛ لأنَّ القهر ضربٌ من القدرة. ومعنى القدرة في الإحياء خفي؛ بسبب أمرين: دقَّة الصنع؛ وذلك من آثار صفة العلم؛ وبنعمة كمال الجنس؛ وذلك من آثار صفة الإنعام"[٢٢].

وإيراد صيغة التفضيل "أحسن" في مساق جملة الاستفهام، مع أنَّ الابتلاء شاملٌ للفريقين: المؤمنين والكافرين؛ إيذانًا بـ"المقصد الأصلي من الابتلاء؛ وهو ظهور كمال إحسان المحسنين"[٢٣]؛ فالمولى –عزّ شأنه- لم يخلق الخلق ليعذّبهم؛ وإنَّما ليتيقّظوا لغاية وجودهم؛ وهذا ما ذكره القرآن تحقيقًا في قوله:ﭐﱡﭐ قح قم كج كح كخ كلكم لج لح لخ لمﱠ [النساء: ١٤٧] . وأمَّا الإعراض والسعي في الأرض بالفساد، فخارج عن الغاية التي لأجلها كان الخلق؛ ووباله يعود على عامله بسوء اختياره. وفي ذلك ترغيب وتحضيض في استباق الخيرات والتنافس عليها، والترقي في مدارج الطاعات، والنهي عن مباشرة ما يُخالف طريقها. وجملة:ﭐﱡﭐ هي يج يحﱠ ، تذييل لجملة الاستفهام، ولا يخفى ما تحمله -في تضاعيفها- من التلويح والإيماء إلى قوَّته –

(٢٢) يُنظر: تفسير أبي السعود، (٣/٩).
(٢٣) التحرير والتنوير، (ص ١٣).

سبحانه- وشدَّة أخذه وعقابه في جزاء من سلك غير سبيل الإحسان والطاعة؛ كما تحمل البشرى وتسكب الطمأنينة في نفس من استشعر البلاء وعاقبة الامتحان، فسعى وحاذر، وعمل وتوقّى، بأنَّ هناك رحمة الله الواسعة، وعفوه عن كثير.

فالجملة الاستفهاميَّة – كما تجلّى لنا من سياقها- قد تآزرت مع ما قبلها ومع ما بعدها؛ تعزيزًا لما تسعى السورة إلى إقراره من حقائق الملك وكمال القدرة. وما ذكر الاستفهام عقب جملة خبريَّة إلَّا تلخيص لما يترتّب على الإماتة والإحياء من الآثار التي أعظمها العمل في الحياة، والجزاء بعد الموت.

وورد الاستفهام بـ(هـل) في السورة مرَّة واحدة، في أعقاب جملة خبريَّة تليها أخرى إنشائيَّة، متّصلة بها في الدلالة، وفي مشهد من مشاهد الخلق والقدرة؛ بل في مشهدٍ أعظم من خلق الإنسان نفسه؛ وهو خلق السموات والأرض الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ [الملك:٣] .والخطاب – في الآية- "لغير معيّن؛ أي: لا ترى أيَّها الرائي تفاوتًا. والمقصود التعريضُ بأهل الشرك الذين أضاعوا النظر والاستدلال، بما يدلّ على وحدانيَّة الله، بما تشاهده أبصارهم من نظام الكواكب"[٢٤].

ومن هنا كان إيثار استعمال "هل"؛ لما تدلّ عليه -دون سواها من سائرِ أخواتها -من إفادة التصديق ليس غير[٢٥]، في أسلوب تحدٍّ من شأنه أن يثير الاهتمام وإعادة النظر فيما وجّه إليه، من خلقٍ قد تكامل صنعه، وتناسب خلقه. وهذه النظرة هي التي حرص القرآن على أن يثيرها ويولّدها في نفوس العالمين؛ ليكون الإيمان عن يقينٍ لا يحتمله شكّ، وعن عقيدةٍ سالمةٍ من كلِّ ريب.

ومن تجلّيات فنّيَّة الاستفهام في الآية، أنَّ الاستفهام في أصل وضعه يتطلّب جوابًا، يحتاج إلى رويَّة وطول تفكير؛ ولمـَّا كان المخاطب يجيب بعد تبصّرٍ وطول تأمّل بالنفي؛ لـمَـا حمله القرآن على النظر إليه، كان توجيه السؤال إليه، حملًا له على الإقرار بالنفي، بما قرّره ربّه له من تكامل هذا الكون، وسيره على نظامٍ دقيقٍ ليس له أن يداخله خلل أو أدنى فطور!؛ ممّا يوقع في نفس المتأمّل الدهشة والعجب في بديع صنع الله وجليل خلقه؛ فلا يملك –بعد الإقرار- إلَّا التسليم بالتوحيد.

هذا، ولقد سلك القرآن في نظمه، أرفع مقامات البلاغة والبيان، وأبعد غايات الإقناع والتحدّي؛ فشكّل بذلك قوَّ ة ضاغطة على متلقي خطابه، بعد شحنها بكلّ الملابسات الكفيلة بإحداث التأثير، وإيقاع المقصد من الكلام؛ فنجده تحقيقًا لذلك النفي، الذي تحمله دلالة الاستفهام في الآية، والذي عدل به عن النفي المباشر؛ ليقع التحدي

---

[٢٤] التحرير والتنوير، (١٧/٢٩).

[٢٥] ينظر: مغني اللبيب، لابن هشام، (٤٠٣/٢).

والإقرار بما لفت إليه من جهة المخاطَب، نجده أيضًا عدل في الخطاب إلى استعمال حرف الجر "من"، فخفض مفعول "ترى" بها، فقال: "من فطور"؛ والنكتة التي يحقّقها بذلك العدول؛ زيادة الإمعان في التحدِّي، وتأكيد الإقرار بنفي التفاوت من قبل المخاطب نفسه؛ فإذا انتفى أن يجد الرائي في السماء –على سعةِ فضائها مع طول تأمّلٍ ورجع بصر- أدنى انشقاقٍ أو فطور، كان استحالة ما فوقه أحقّ وآكد، وكان ذلك أشدّ إدلالًا على إحكام الخلق، ودقَّة الصانع، فلا يسع الرائي إلَّا أن يعترف بانتفاء الفطور في نظام السموات؛ فلست تراها حيث قلّبت النظر إلَّا مستوية محبوكة، لا ترى خلالها من شقوقٍ ولا صدوع!. وكلّ ذلك ينفي أن تكون "من" -في سياق جملة الاستفهام- زائدة؛ فلقد كان لها في سياقِها نكتة، وفي نظمِها لطيفة؛ و"الزائد ما لا معنى له؛ وكلام الله منزَّهٌ عن ذلك"[٢٦].

ولو عاودنا النظر في سياق جملة الاستفهام، لوجدناها قارّة بين جملتين إنشائيَّتين: وهو ممَّا يُكسب الدلالة –في موقعها من جهةٍ ثالثة- قوَّة وتمكينًا، ويزيدها قرارًا وتحقيقًا؛ وذلك أنَّ حمل المخاطب على نفي التفاوت في أقطار السموات، وإقراره باستواء خلقها وإحكام صنعتها، لا يكون إلَّا بعد إعادة تحقيقٍ وتبصّر فيها؛ لكي يكون نفي التفاوت معلومًا على جهة اليقين، لا عن تقليدٍ للمخبرِ وتبعيَّة له.

وتتآزر الجملة الثانية: مع الاستفهام وجملة الأمر قبلها في تحقيق الغرض والمقصد الذي تسوق إليه الآية، من انتفاء التفاوت والخلل في نظام السموات، كما تزيد عليها؛ وتمعن في التحدي والتقرير، باعتبارين: أحدهما العطف بـ"ثمَّ" التي تفيد التراخي الرتبي ...؛ "فإنَّ مضمون الجملة المعطوفة بـ (ثمَّ) هنا أدخل في الغرض من مضمون الجملة المعطوف عليها؛ لإنَّ إعادة النظر تزيد العلم بانتفاء التفاوت في الخلق رسوخًا ويقينًا"[٢٧]، وفي تجديد النظر في خلق السموات على فتراتٍ فيها تراخٍ؛ ما يجدّد نشاط النفس والنظر الكليل، لإعادة الكرَّة في النظر إليها؛ إصابةً لما عساه يلتمسه من عيبٍ وخللٍ في أرجائها.

والثاني: إلحاق "كرتين" بالجملة المكرّرة؛ ويرادُ بها –في الآية- مطلق التكرير، لا العدد اثنين؛ "والكرَّة مشتقَّة من (الكرّ)، وهو العود؛ لأنَّها الانفصال عنه؛ ككرة المقاتل يحمل على العدو بعد أن يفرّ فرارًا مصنوعًا"[٢٨]. وعليه، تكون الجملة المعطوفة بـ"ثمَّ" مع تكرير العبارة، وإلحاقها بلفظة "كرتين"، التي آثر السياق القرآني استعمالها دون لفظة (مرَّتين)، كلٌّ منهما يسعى إلى غاية؛ وهي دعوة

---

[٢٦] البرهان في علوم القرآن، (ص ١٧٨).
[٢٧] التحرير والتنوير، (١٩/٢٩)
[٢٨] المرجع السابق.

المخاطب أو الرائي إلى تجديد النظر إلى السماء في أعقاب فتراتٍ متكرّرة متراخية؛ ليعود للنفس والبصر الجدَّة في تلمّس خللٍ أو تفاوتٍ في خلق الرحمن للسموات السبع.

والنتيجة التي ينتهي إليها السياق القرآني، بعد تقريرها بجمله الإنشائيَّة الطلبيَّة، التي تولّدت عن الاستفهام وجملتي الأمر، انقلاب البصر خائبًا محرومًا بعد عيٍّ وكللٍ وطول نظر، من إصابة ما يلتمسه من الخلل والفطور، وما كان حريصًا على يكون بعد قوَّةٍ تحديقٍ وطول تأمّل!. ويزيد الدلالة رسوخًا –في موقعها- التعبير عنها بصيغة المضارع ، ما يتناصر مع مساق الآية والغرض منها؛ إذ في كلّ مرة يجدّد النظر، ويحدّق ببصره في أقطار السموات؛ طالبًا لعيبٍ عساهُ يراهُ فيها، يكون محصّلة نظره انقلاب البصر خاسئًا كليلًا مهزومًا!!.

وبعد أنْ دلّل ربّنا على كمال خلقه للسموات السبع، أبان عن جمال صنعه وخلقه لها؛ بما بثّه فيها من زينةٍ لها، جعلها -في الآن نفسه- رجومًا للشياطين ومسترقة السمع من الجنّ، ثمَّ يستطرد من خلال ذلك إلى ذكر جهنم وخزنتها، وما أعدّه فيها من نزلٍ للكافرين، في مشهدٍ مهيبٍ تشيب لهول مطلعِه الولدان!؛ لئلا يتوهّم أنَّ العذاب أُعدّ للشياطين خاصَّة.

وفي هذا السياق، يأتي الاستفهام في مشهد تصوير هول العذاب الذي أحيق بالكافرين، من خلال وصفه لجهنّم التي شخّصها لنا، وهي تستقبل من أُلقيَ فيها بحال مغتاظٍ حانق، قد أخذ به الغضب كلّ مأخذ؛ فارتفعت أنفاسه في شهيق؛ فهي تغلي بأصحابها غليان المرجل؛ حتّى كأنَّ أجزاءها تكاد -من الغيظ الكظيم- تنفصمُ وتتمزّقُ!!. يقول تعالى: وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [الملك:٦-١٠]

ذلك المشهد الذي شخصه لنا المولى في صفةِ جهنّم؛ حتَّى كأنَّنا نراه -أمام أعيننا- منتصبًا؛ إنَّما هو تعبيرٌ عن عظيم ما جناه أولئكَ الكفرة من جناياتٍ لا مساغ لاعتباره من جهتهم؛ حين أعرضوا عن رسالات ربّهم، وجعلوا لهم آلهةً تُعبَدُ من دونه. كما تنبئ عن دهشة سائر المخلوقات وغيظها؛ لشركهم بربّهم؛ إذ ما من شيءٍ في هذا الملكوت العظيم، إلا وهو يسبّح بحمد ربّه؛ مهابةً وتعظيمًا تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا [الإسراء:٤٤ ].

ويأتي في سياق الذلّ والخزي والعذاب الذي حاق بالكافرين، مشهد سؤال خزنة النار، الذين لا يقلّون في حنقهم وغيظهم على من أشرك وأعرض عن ذكر ربّه، عن نار جهنم تغيَّظًا ونكيرًا؛ فقد ذكر الله في صفتهم في غير هذه السورة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ[التحريم: ٦ ].

ولكَ أن تتخيَّل خزنة النار على أبوابها، وهي تشهدُ أفواج الكافرين، تلقى في جهنّم فوجًا فوجًا؛ لتسأل كلّ فوجٍ يدخلها سؤال الموبِّخ المؤنِّب، المرجف الساخر؛ الذي يزيدهم عذابًا فوق عذابهم، وحسرةً إلى حسرتهم: ؛ وجاء في سياق آخر في غير هذه السورة: وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ [الزمر:٧١ ]. ومعلوم أنَّ الهمزة إذا وليها نفي تفيد الإقرار؛ فهو سؤالٌ جيء به على جهة التقرير والتوبيخ والتقريع، فقالوا اعترافًا وإقرارًا، في ذلّةٍ وانكسار جامعين بين حرف الجواب وجملة السؤال نفسها مؤكَّدة أيضًا بـ(قد)؛ "مُبالغة في الاعتراف بمجيء النذير، وتحسّرًا على ما فاتهم من السعادة في تصديقهم، وتمهيدًا لبيان ما وقع من التفريط تندّمًا واغتمامًا"[٢٩]؛ بل لشدّة تلك الحسرة التي تعتلج في صدورهم، ولشدّة وقع السؤال الذي كان من خزنة النار لهم على نفوسهم، لم يكتفوا بذكر الجواب وإعادة نصّ جملة السؤال بعد تأكيدها بـ(قد)؛ بل أوغلوا في الجواب بذكر ما كان من حالهم في الدنيا من الجحد بآيات ربِّهم، والإفراط في تكذيب رسله، واتهامهم وما نزل عليهم بالضلال المبين؛ وهو ما تحكيه جملة خطابهم: بتضعيف الفعل: "كذّبنا"، والفعل"نزَّل" مع نفيه وخفض مفعوله وتنكيره "من شيء"؛ ؛ تعميمًا ومبالغة وتماديًا في الكذبِ والنكير.

ذلك السؤال الوارد من خزنة جهنم، كان له وقعه الأليم الشديد على نفوسهم، ما جعلهم في مجامعهم وهم في النار يتناوشون الحديث حسرةً وندامة، وأسفًا واعترافًا، ومقتًا لأنفسهم بأنفسهم؛ فإذا هم ينفون عنها بعد معاينة ما حاق بهم من العذاب الأليم، أنْ قدْ كان لهم سمع فيسمعون به، أو عقل فينتفعون به؛ لأن من كان يسمعُ أو يعقل، لا يورد نفسه البتَّة موارد الهلاك والخزي العظيم وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ[الملك:١٠ ]. وهنا -بعد اعترافهم- تحيق عليه دعوة الله بالبعدِ والإقصاءِ عن رحمته: فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ [الملك:١١ ]. وأعيد فعل القول –في الآية- "للإشارة إلى أنَّ هذا كلام آخر، غير الذي وقع جوابًا عن سؤال خزنة جهنّم؛ وإنَّما هذا قولٌ قالوه في مجامعهم في النار تحسّرًا وتندّما"[٣٠].

وفي مجيء الاستفهام في سياق جملة شرطيَّة مصدَّرة بـ"كلَّما" ما يفيد تكرّر فعل السؤال من قبل خزنة النار، لكلّ فوجٍ يُلقَى فيها. كما أنَّ التعبير بقوله: "ألقوا" في سياق الإخبار، وتكراره في سياق جملة الشرط الوارد فيها سؤال الخزنة: "أُلقيَ" -مع أنَّ في اللغة إمكاناتٍ ومعادلات تقوم مقامها، وتسدّ مكانها، نحو: الفعل (أُدخلَ)- ما

---

[٢٩] تفسير أبي السعود، (٥/٩).
[٣٠] التحرير والتنوير، (٢٧/٢٩).

يمكِّن لبلاغة الخطاب، ويجسّد لنا بعدًا جديدًا من صور الخزي الذي حلَّ بالكافرين، والذي يريد القرآن حكايته بالفعل أوَّلًا؛ إذ تحمل دلالة الفعل الطرح[٣١] والقذف والرمي في النار دون مبالاةٍ ولا اعتبارٍ لجنس ما رمى؛ هذا مع ما ينضوي عليه الفعل عند بنائه للمجهول -والذي تآزر مع دلالة الفعل اللغويَّة- من نقل صورة من صور الإهانة والتحقير لشأن الكافرين المستكبرين؛ إذ ليسوا بشيءٍ، فيحفل به، أو يُلتفتُ إليه!.

وبذا يتبدّى أنَّ الحوار الذي أثاره سؤال خزنة النار لأهلها، والذي اتّسمت لغته بالتركيز والإيجاز والتكثيف، كان له فضل كبير -بالغ الخطر والأثر- في الإحاطة بتداعيات الموقف، وإضفاء عنصر الحياة والحيويَّة على المشهد، وفي تعميق جانب الدلالة وإثرائها؛ من الكشف عمَّا تجنّه نفوس الكافرين من مشاعر نفسيَّة أليمة، وعمَّا يعتملُ داخلها من حسرةٍ وأسفٍ وندامة –ليس لها أن تنقضي- على ما فرَّطوا في جنب الله وطاعته؛ ما يجعل متلقي الخطاب يدرك من خلاله فداحة المصاب، وعظم العذاب، وشدّة الندامة، التي حلَّت بالكافرين، ما جعلهم يعترفون بغوايتهم وسوء ما صنعوا.

وممّا يُلمح على بنية الاستفهام في الآيات، مجيئه فاصلة قرآنيَّة –في أكثر موضع- ومعلوم أنَّ الفاصلة في القرآن تأتي مكينة في مكانها، قارَّة في موضعها، متّسقة مع دلالة الآية، يستدعيها السياق، ويقودُ إليها دون تطلّبٍ لها، أو تكلّفٍ في اصطناعها. ووروده –أيضًا- في أعقاب جملٍ خبريَّة –كما هو في هذه الآية وآية سابقة- ما يوقظ مكامن الحسّ عند المتلقي، ويحركُ وجدانه ومنافذ فكره نحو مقتضى الخطاب وموجبه.

والاستفهام الوارد بعد هذه الآية، جاء في أعقاب جملة إنشائيَّة؛ متضمّنة ذكر شيءٍ من أقاويل المشركين في الدنيا، بعد أن نقل لنا –في الآيات السابقة- مشهدًا من حياتهم الآخرة ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٣-١٤ ].

ويتجلّى من خلال السياق، ما تحمله الجملة الإنشائيَّة الواردة قبل الاستفهام، من روح التحدّي؛ فهو الذي خلق البشر، ويعلم ما تحويه مضمرات قلوبهم، وما يستكين في صدورهم؛ فالسرّ والجهر في علمه سيَّان؛ لا يخفى عليه منهما خافية؛ بل إنَّه ﴿ ﯽ ﯾ ﯿ ﴾ [سورة طه: ٧ ]؛ استغراقًا في إحاطة علمه –سبحانه- بخلقه، وبكلّ دقيقةٍ وجليلةٍ في هذا الملكوت الواسع العظيم!.

والآية نزلت –كما حكى ابن عبّاسٍ رضي الله عنه- في المشركين كانوا ينالون من النّبي –عليه الصلاة والسلام- فيوحَى إليه، فقال: بعضهم لبعض: أسرّوا قولكم؛

[٣١] يُنظر: لسان العرب، مادة "لقى"، (١٣/٢٢٦-٢٢٧).

كيلا يسمع ربّ محمَّد[٣٢]، فأنزل الله الآية كاشفة خفايا ما يضمرون. وفي تقديم السرّ على الجهر؛ إيذانًا بافتضاحهم ووقوع ما يحذرون من أوَّل الأمر، والاستغراق "في إحاطة وشمول علمه لجميع ما خلق؛ فكأن علمه تعالى بما يسرّونه أقدر منه بما يجهرون به؛ مع كونهما في الحقيقة على السويَّة ...؛ أو لأنَّ مرتبة السرّ متقدّمة على مرتبة الجهر؛ إذ ما من شيءٍ يجهر به، إلَّا وهو أو مباديه مضمر في القلب، يتعلّق به الأسرار -غالبًا- فتعلّق علمه تعالى بحالته الأولى متقدّم على تعلّقه بحالته الثانية"[٣٣].

فاستواء السرّ والجهر عنده سبحانه؛ لشمول علمه الذي أحاط بكلّ شيء؛ فلا يعزب عنه شيء!. وكان للنظم الذي سلكه القرآن في التعبير، أثر كبير في تحقيق القول قبله؛ ومهادًا طبيعيًّا لنشأة الاستفهام في الآية التي تليها؛ فأكّدها بـ"إنَّ"، جاعلًا "عليم" على صيغة "فعيل"، الذي أحاط بأحوال الصدور وما فيها، وما عبّرت عنه وما لم تعبّر؛ فليس يخفى عليه من سرائرها شيء!.

وأسلوبيَّة الاستفهام في تأتي من خروجه عن معناه في أصل وضعه، إلى دلالاتٍ رحبة ينبئ عنها السياق؛ حيث يحمل معاني الإنكار والتعجب ونفي ألَّا يكون علمه أحاط بالسرّ والجهر. وقد أعان النسيج اللغوي الذي اكتنف الاستفهام ووقع في سياقه، على إصابة ما يتوخّى من غرض؛ فجاء الاستفهام بالهمزة متّصلًا بـ(لا النافية)؛ ممَّا أضفى على العبارة الوارد الاستفهام في سياقها صفة التنبيه ولفت الأسماع إلى ما يجيء بعدها؛ بعد ما ذكر في الآية قبلها عن تحدٍّ وإقرار شمول علمه للسرّ والجهر. وجاء بالفعل "يعلم" في صيغة المضارع؛ للإيذان بأنَّ علمه يحيط بما هو كائن وما سيكون. وعبّر باسم الموصول "من" دون اسم الموصول "الذي" لما تفيده "من" من دلالة عموم علمه وشموله لمن خلق، وهي دلالة لا يدلّ عليها اسم الموصول "الذي" والذي يفيد التعيين. ولأنَّ الخلْق لا يتأتّى دون علم، أردف "من" بـ"خلق"، وحذف مفعوله؛ تعميمًا، فعلمه أحاط بكلّ من خلق دون استثناء. ثمَّ ختم الآية بما يحقّق مغزاها، ويتساوق مع دلالة النزول، الذي كان في نفي علمه -سبحانه- بالجهر دون السرّ -على ما تقوَّل بذلك المشركون- العالم بخفيّات الأمور، وما بثّه في القلوب، العليم بالظواهر والبواطن، فلا تعزب عنه الحوادث الخفيَّة[٣٤]؛ فكيف بعظائمها؟!؛ "وهو أعظم تهديدٍ يكون؛ فإنَّ من عَلِم أنَّ مَن يعصيه عالمًا به، وهو قادرٌ عليه، لا يعصيه أبدًا"[٣٥].

---

[٣٢] ينظر: الكشّاف، للزمخشري، (ص١١٢٨)؛ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٢٣٣/٢١-٢٣٤)؛ التحرير والتنوير، (٥١/٢٩).

[٣٣] تفسير أبي السعود، (٦/٢٠).

[٣٤] يُنظر: التحرير والتنوير، (٣١/٢٩)؛ نظم الدرر، للبقاعي، (٢٤٤/٢٠).

[٣٥] نظم الدرر، (٢٤٤/٢٠).

فالاستفهام –على ما نرى- كان له دوره البالغ في تجذير الدلالة، وتحقيق المعنى الذي يعالجه الخطاب على أرضٍ راسخة؛ ذلك أنَّ القرآن حريص على تثبيت تلك الحقيقة وإقرارها في النفوس؛ بما لا يخالجها أدنى شكٍّ وريبة. ولا غرو؛ إذ إنَّ استقرارها يتعلّق بعقيدة المؤمن وإيمانه بربّه؛ فمتى استشعر القلب بأنَّ الله معه في السرّ والعلانيَّة، وأنَّه معه في الغيب والشهادة، وفي كلِّ ما جلّ ودقَّ من شأنه، أودع ذلك في نفسه حزمًا ويقظة؛ تجعله يراقب حركاته وأفعاله، وما عسى أن توسوس به نفسه، فيتقي الله في نيّته، ويسعى جاهدًا لصلاحها؛ إذ بصلاحها يصلح القلب وجميع العمل؛ ولذا جعل الله هذه الحقيقة سمة لأوليائه، وأهل مغفرته وثوابه؛ فقال مخبرًا عن ذلك في سياقٍ كان مهادًا للسياق الذي تقدّم جملة الاستفهام: إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ [الملك:١٢ ].

وتتجلى الظاهرة الأسلوبيَّة لبنية الاستفهام في السورة بصورةٍ بيّنة، لافتة إلى نفسها دون تأمّلٍ ورجع بصر في نصيفها الثاني؛ وتحديدًا من الآية (١٦) إلى الآية (٣٠)، عبر سلسلةٍ تكاد تكون متّصلة، يتجلّى في جنباتها التهديد والتخويف، والإنذار والوعيد؛ وهو مقامٌ واردٌ في سياقه؛ إذ لم يكن بعد الاستعطاف، والامتنان بالنعم، والاستدلال على لطائف خلقه وبدائع صنعه –سبحانه- في أرضه وسمائه، إلّا الإنذار والتهديد، وسلوك مسلك التحدّي والتخويف والتبكيت.

يقول –تعالى- متوعّدًا بالويل والثبور، لمن ضلّ سعيه في الحياة الدنيا، ولم يرعَ حقّ ربّه الذي سخّر له -فضلًا منه ورحمة- ما في الأرض جميعًا أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ّ [الملك: ١٦-١٨ ].

سبق هذا الإنذار –جريًا على نسق السورة من تبيان آثار قدرة الله وتصريفه لهذا الملكوت على نظامٍ بديع- امتنان الله على خلقه بجعل الأرض ممهَّدة للمشي عليها، دون أدنى عناءٍ أو مشقَّة؛ فهي لأهلها الدابة الذلول المسخّرة؛ فلا هي تميد بمن على ظهرها، ولا هي تتعثّر خطاها، فترهق من عليها بكثرة سقوطها!. وذلّلها كذلك بإيجاد أسباب الرزق والوسائل الكفيلة بتحصيل العيش فيها. وفي هذا تذكير بشواهد الربوبيَّة وتوالي الإنعام والمنَّة؛ ليتدبّروا، ويتركوا ما هم فيه من كبرٍ وعناد. بيد أنَّ مثل تلكم النعم تكاد تكون منسيَّة عند كثيرٍ من الناس؛ لألفتهم لها؛ ومن هنا تحوّل مسار الخطاب عن معرض الاستدلال والامتنان والإخبار بالنعمة، إلى الاستفهام بطريق الإنكار والتوبيخ والتعجب، المشرَّب بمعاني الوعيد والتهديد والتخويف والإنذار؛ من تحويل ذلك الأمان الذي ينعمون به على الأرض مطمئنّين، إلى خسفٍ يزلزل أقدامهم، فترتجُ له الأرض وتمور!!.

ولقد كان لصياغة الخطاب عبر تقنية الاستفهام دوره في تفخيم الدلالة، وشحذها بكلّ ما يكفل لها حكاية فداحة الخطب، وعظم المنقلب؛ ولا غرو؛ فهو -على ما مضى بنا القول- يعدّ واحدًا من الوسائل التي سلكها القرآن، في تحريك النفوس وإيقاظها من غفلتها، في دعوته إلى الله، وترك عبادة ما سواه من سائرِ المعبودات.

ممَّا يلاحظ على المستوى الصوتي لبنية الاستفهام –والذي استهلّت به الآية خطابها الإنذاري- اجتماع همزتين؛ همزة الاستفهام (أ) وهمزة الفعل (أمِنَ). ومن العلماء من قرأ الآية بتحقيق الهمزة[٣٦]. ومعلومٌ أنَّ الهمزة من أثقل الحروف نطقًا، وأبعدها مخرجًا؛ ولمَّا كانت كذلك، فقد تنوَّع العرب في تخفيفه بأنواع التخفيف؛ بتسهيلها مرَّة، وإسقاطها مرَّة أخرى؛ فكيف إذا توالى -في الكلمة الواحدة دون فصلٍ- أكثر من همزة؟! لا شكّ، أنَّ الأمر يغدو أعسر وأشقّ؛ إذ يحتاج –حينئذٍ- إلى جهدٍ مضاعفٍ لنطقها[٣٧]. وتلك سبيلٌ قصدها الخطاب وسعى إليها؛ لتناغمه مع مقام التهديد والتحدّي، في سياق خطاب القرآن المباشر لأهل الكفر والضلال، والذي يتطلّب أصواتًا تتّسم بدرجةٍ عاليةٍ من الوضوح السمعي؛ لتقرع الأسماع بصليلها وشدَّة وقعها، وترقّب خبرٍ يجيءُ بعدها.

وجيء بالفعل "أمنتم" بعد الهمزة؛ لأنَّه موضع السؤال والإنكار والتهديد. والأمان الذي يُنكره الله على عباده؛ الأمان الذي يُوحي بالغفلة عن الله، وتأمّل معالم قدرته في خلقه؛ ومن ذلك غفلتهم عن الأمان الذي امتنّ به عليهم على وجه الأرض، والذي وجَّه إليه العقول، في مساق الاستدلال على منَّة التسخير قبل هذه الآية. وتساوقًا مع معاني التفخيم والتهويل الواردة في سياق بنية الاستفهام؛ فقد عدل الخطاب عن استعمال اسم الموصول "الذي"، والذي يفيد التعيين، إلى استعمال اسم الموصول "من"؛ الذي يحمل دلالة التنكير والعموم؛ ويُوحي –في سياقه- بمعاني القهر والقوَّة والهيمنة؛ ومن هنا تعدَّدت أوجه تأويل "من" في الآية[٣٨].

كما عدل الخطاب عن مقام الإضمار إلى الإظهار؛ وكان يقتضي سياق الآية أن يكون: (أأمنتموه أن يخسف بكم الأرض)؛ فيتأتّى أنَّ الإتيان بالموصول؛ لما تُؤذن به صلته "من عظيم تصرّفه في العالم العلوي، الذي هو مصدر القوى والعناصر وعجائب الكائنات"[٣٩].

---

[٣٦] ينظر: الجامع لأحكام القرآن، (١٢٦/٩-١٢٧).

[٣٧] يُنظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ٦٢٧؛ الأصوات اللغويَّة، إبراهيم أنيس، (ص ٩١).

[٣٨] يُنظر: الجامع لأحكام القرآن، (١٢٥/٩)، الكشَّاف، (ص١١٢٧)؛ التحرير والتنوير، (٣٣/٢٩)؛ تفسير أبي السعود، (٧/٢٠).

[٣٩] التحرير والتنوير، (٣٣/٢٩).

Doi:10.33850/ajahs.2020.68017

والنتيجة التي تؤول إليها جملة الاستفهام، مور الأرض واضطرابها مجيئًا وذهابًا على خلاف ما كان من عهد الذلّ والاطمئنان. وهو خسف شاملٌ للأرض ومن عليها؛ ولذا قال: "بكم"؛ وهو تأكيدٌ بأنَّ الخسف ليس للأرض دون أهلها.

وجريًا على ما يناسب مقام التهديد والوعيد الوارد في نظم الخطاب؛ فقد جعل حصول الخسف في حكم حادثٍ وقع؛ فعبَّر بالحرف الدال على المفاجأة؛ وحقّ المفاجأة أن تكون حاصلة زمن الحال(٤٠).

وتذهب دلالة الاستفهام مذهب السابقة؛ من الإنكار على المشركين وتوبيخهم وتهديدهم أن يأمنوا بطش ربِّهم وأخذه؛ بأن يرسل عليهم حجارة من السماء، أو ريحًا فيها حجارة وحصباء، تدمّر كلّ شيءٍ بإذن ربهّا. وعند ذا، يكون الخطاب القرآني قد أحاط بالموقف، وأوثق الخناق على الكافرين؛ بسلب الأمان الذي لا يستشعرونه، والنعمة التي ينكرونها، بعذابٍ من تحت أرجلهم، أو من فوق رؤوسهم؛ وفي هذا من الاستدلال على هيمنة الملك، وتجلّيات قدرته القاهرة على خلقه، ما لا سبيل لأحدٍ إلى إنكارِه أو جحدِه!.

و"أم" في الآية إضراب عن التهديد بالخسف، وانتقال إلى التهديد بوجهٍ آخر؛ وهو العذاب بالحاصب. وفي تكرّير فاتحة الآية ، زيادة في الترهيب والوعيد. وقدّم التهديد بالخسف، على التهديد بالحاصب؛ "لأنَّ الخسف من أحوال الأرض، والكلام على أحوالها أقرب هنا، فسُلك شبه طريق النشر المعكوس؛ ولأنَّ إرسال الحاصب عليهم؛ جزاءً على كفرهم بنعمة الله؛ التي منها رزقهم في الأرض ؛ فإنَّ منشأ الأرزاق الأرضيَّة من غيوث السماء"(٤١).

ولقد كان للاختيار والتركيب أثرهما البالغ في نقل أبعاد مشهد العذاب وتهويله؛ إشارة إلى أنَّ الحصباء ترميهم من علوٍّ وارتفاع؛ ما يجعل وقعها على أهل الأرض أشدّ فتكًا وإيلامًا. وفي سياق تفخيمه لشأن الحاصب، وشدَّة نكبته وبأسائه؛ عدل عن تعريفه إلى تنكيره، فقال: "حاصبًا"؛ وهو ما يلائم مقام التحدّي والإنذار بالويل والثبور في الآية.

وممَّا يحقّق شدَّة ذلك الوعيد، الذي ربَّما كان حالهم عنده، حال المتردّد الشاكّ في وقوعه، ما عقّب به من الاستفهام الإنكاري -في السياق نفسه- بـ"كيف"، المشرّب بدلالة التهديد والتهويل، بما تتقطع معه نياط القلوب: ٱثى ثي فىٍّ؛ مع لفت القول إلى مقام التكلّم بعد أن كان للمخاطب؛ إيذانًا بشدَّة العذاب، وقرب حدوث المنقلب. وفي تنكير "نذير"، وحذف الياء منها، ومجيئها على صيغة (فعيل)؛ كل ذلك يعضدُ بعضه

---

(٤٠) المرجع السابق، (٣٤/٢٩).

(٤١) المرجع السابق، (٣٦/٢٩).

بعضًا، في تحقيق أبعاد مشهد الوعيد وتهويل شأنه؛ في إشارة إلى أنَّ هذا العذاب الذي أخذهم به، ليس منتهى ما تؤول إليه القدرة؛ بل لديه مزيد لا حدّ له، ولا أمد يُنتهى إليه!!.

فالخطاب القرآني –كما يتجلّى لنا- قد أحكم نقل المشهد من خلال التشكيل اللغوي، الواقع في حيّز الاستفهام المتكرر الذي يعدّ سياجًا له؛ حيث افتتحت به الآية خطابها وختمت به؛ ممَّا مكّن للدلالة؛ لافتا إليها المسامع؛ ليظل صليلها قارعًا النفوس، باعثًا فيها فداحة المنقلب ورهبة الوعيد.

كما وقع الاستفهام الإنكاري التقريعي بما يحمله من دلالة التهديد والوعيد، فاصلة في الآية التي تليها؛ وذلك في مساق الإخبار عن تكذيب الأمم السابقة لرسلهم، وعدم انتفاعهم بالآيات والنذر وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ[الملك: ١٨ ]. وإنّما لجأ القرآن في خطابه إلى التذكير بما حلّ بمن سبقهم من العذاب؛ لأنَّ مشاهده لا تزال محسوسة، لم تندرس آثارها إلى الآن[٤٢]؛ والإنسان يروعه أمر المشاهدات أكثر ممَّا يعنّ له بالوهم والتصوّر. ويُلمح -من مساق الخطاب- عدوله عن ضمير المتكلّم إلى ضمير الغيبة؛ إيذانًا بالإعراض عن المشركين، مع تأكيد جملة الخبر بلام القسم؛ دفعًا لما قد يتوهّم بأنَّ الله عاقب من قدْ سبق من الأمم المكذّبة نكاية بلا جرم. وفي إيثار التعبير بالفعل"كذَّب" مضعّفًا، ما يكسب الدلالة تماديًا وإفراطًا في تكذيب أولئكَ لرسلهم وأنبيائهم؛ فكان العذاب الذي نزل بساحتهم –من جنس عملهم- مُضاعفًا شنيعًا؛ كما تُوحي بذلك معطيات الجملة الاستفهاميَّة فَكَيْفَ كَانَ ؛ أي: "إنكاري عليهم بإنزال العذاب"[٤٣]؛ وهي دلالة مكتسبة من الاستفهام بـ"كيف"، وتنكير "نكير"، والمجيء بها على صيغة (فعيل)؛ والتي تآزرت فيما بينها؛ لتفخيم مشهد العذاب وتهويله. وفي ذلك كلّه تسلية للرسول- صلى الله عليه وسلم- الذي طال أمد تكذيبه، بتشديد التهديد لقومه.

ولايزال الخطاب القرآني يوالي خطابه عبر سلسلةٍ من أساليب القول بديعة، يشكّل الاستفهام فيها بنية دلاليَّة قويَّة وضاغطة، تلتحم مع سواها من البنى اللغويَّة الأخرى، في اتساق بديع، ونظام لغوي فريد، تحقيقًا للمغزى الذي تسعى السورة -في مضمونها الكلي- إلى ترسيخه وتقرير حقيقته في النفوس؛ من تفرّد الحقّ –سبحانه- بالملك والقدرة المطلقة، الدالّة على تفرّده بالألوهيَّة دون سواه.

وجريًا على دأب القرآن في خطابه للنفوس، من تنويع أساليب الدعوة، والمزاوجة بين الوعد والوعيد، والتأمَّل والتفكير، والقصّ والاعتبار وغير ذلك من

---

[٤٢] يُنظر: نظم الدرر، (٢٥١/٢٠)؛ التحرير والتنوير، (٣٦/٢٩).

[٤٣] تفسير أبي السعود، (٧/٩).

الأساليب في قالبٍ أخَّاذٍ جميل، تجتليه العيون، وتتملّاه المسامع والعقول، نراه ينتقل بنا من مشهد التهديد والإرجاف والتهويل، إلى مشهد التأمّل والتبصّر والتفكير؛ في مشهدٍ نراه نصب أعيننا كلّ يوم، وقلّ من يتدبّره؛ لنستجلي فيه آفاق القدرة، وعظمة الصانع المدبّر، الذي أعطى كلّ شيءٍ خلقه ثمَّ هدى.

إنَّ القرآن في خطابه الاستفهامي التالي، ينقلنا من عالم الأرض وعوالم السموات، إلى عالم الطير ونظام حركاتها في حالِ طيرانها؛ إذ لا تمشي على الأرض كما هو في حركات سائر الدوابّ على الأرض؛ فحالها أقوى دلالة على عجيب صنع الله المتفرّد به!. يقول تعالى أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ [الملك: ١٩ ].

والاستفهام في الآية يُراد به الإنكار والتوبيخ على مشركي قريش، في سياق الاستدلال والتذكير بشواهد القدرة على ربوبيَّته؛ من إغفال تأمّل مشهد الطير، وهي سابحة في جوّ السماء. ذلك المشهدُ الذي يتكرّر أمام أعينهم كلّ يوم؛ دون أن يكون لهم من أنفسهم ما يدعوهم إلى التفكّر في دقَّة الصنع، وما أودعه فيها من عجائب الخلق، ومن حسن تدبير لها.

والنظم القرآني -بما يسلكه من وسائل وأساليب- يتآزر دومًا مع مقاصد الخطاب؛ بما يعزّز الدلالة، ويمكّن لها، ويدفع بها إلى تحقيق غاياته ومقاصده؛ ومن هنا اختلف سياق هذه الآية، عن الآية الواردة في سورة النحل أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[النحل: ٧٩ ]؛ وذلك بحسب ما اقتضاه اختلاف المقامين؛ ففي سورة النحل جاء ذكرها ضمن سلسلة مظاهر نعم الله التترا، التي أسبغها على عباده، وفي معرض الامتنان بالنعمة، الذي يؤول بأهلها إلى الشكر والثناء لمسخّرها ومذلّلها لمنافعنا؛ ولأجل ذا قال في سياق نظم الخطاب: "مسخّراتٍ"، جاعلًا الفاصلة لافتًا إلى المنَّة في ذلك التسخير؛ وما تستوجبه من الاستدلال بها على عظمة خالقها، وعبادته استحقاقًا دون سواه.

وأمَّا الآية الواردة في سورة الملك، فقد أطنب فيها ما كان أجمله في الأولى؛ تساوقًا مع مقاصد الخطاب من التذكير بدلائل القدرة، واسترسالًا في الدلائل على انفراد الله بالتصرّف فيما خلق؛ تصرّف مليكٍ مقتدر. ولمَّا كانت الآية معطوفة على قوله هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ[سورة الملك: ١٥]، قال: "أولم" بإرداف الهمزة بالواو؛ فكما ذلّل سبحانه الأرض، فجعلها لأهلها قرارًا، لفت إلى تذليل الطير للطيران في جوّ السماء؛ بما أودعه فيها من قوًى، وما أوجده فيها من وسائل تحفظه بقدرته من السقوط.

وفي ورود "الواو" عقب همزة الاستفهام –فيما أرى أيضًا- إيقاظًا لعقول المشركين، وتنبيهًا لمداركهم، التي لم تتفطّن –من قبل- لمنَّة التسخير من تذليل الأرض لأهلها؛ مع ما فيه من نكيرٍ وتبكيت لهم على ما هم فيه من غفلةٍ، تشهد على سفه عقولهم، التي لا تعتبر بالآياتِ والنذر. وفي صرف الخطاب إلى الغيبة "يروا"؛ نذيرٌ آخر بشدّة ويلهم وثبورهم؛ لتعطيلهم منافذ الاستدلال، التي تقود صاحبها -فطرةً وجبلَّة- إلى الإذعان والإقرار بالتوحيد.

والرؤية –في الآية- بصريَّة مضمَّنة معنى النظر؛ ولذلك عُدّيت بـ"إلى"، فاقتضت معنى التأمَّل والتفكّر والاعتبار. وعدل السياق إلى استعمال لفظ (الرؤية)؛ التي تعني إدراك المرئي دون طلبٍ لرؤيته -في سياق الاستفهام الإنكاري- دون (النظر)، الذي يحمل دلالة التفكر والتأمّل في أحوال الأشياء[٤٤] -وهو ما يقتضيه السياق- إمعانًا في تنزيلهم منزلة من لم يرَ هاته الأحوال في الطير؛ لأنَّهم لم يعتبروا بها، ولم يهتدوا إلى دلالتها على انفراد خالقها بالإلهيَّة[٤٥].

وبذا، يكون السياق الواقع في حيّز الاستفهام، قد أحكم الدلالة على شدّة غفلتهم وتماديهم في غيّهم وضلالهم باعتباراتٍ عدّة؛ من خروج الاستفهام على خلاف ما يقتضيه أصل وضعه، إلى دلالة الإنكار والتقريع. وفي عطف الاستفهام في الآية على ما قبله "أولم"؛ ممَّا أكسب السياق زيادة تنبيه على غفلتهم؛ ثمَّ في صرف الخطاب عنهم إلى الغيبة، وتنزيلهم منزلة من لم يرَ قط تلك الحركات العجيبة والبديعة من أحوال الطير؛ والتي هي مظنَّة الاستدلال على استحقاق مسخّرها للعبادة دون سواه؛ ومن هنا ارتكز السياق -في هذه الآية دون الآية الواردة في سورة النحل- على استحضار شواهد القدرة بذكر طرفٍ من عجائب أحوالها في خلقِها.

ولقد كان للاختيار اللغوي والنظم التأليفي دورهما في تفخيم معالم القدرة في خلق الطير؛ بما يتوائم مع مقاصد الخطاب وأغراض السورة؛ فقال: "فوقهم"، في سياق الإشارة إلى حالةٍ عجيبةٍ في خلقها؛ مُلفتًا بذلك إلى مخالفة خلقتها كافّة الدوابّ، التي تمشي على الأرض. كما أنَّ سياقها تجرّد من الجارّ، فلم يقل: (من فوقهم)؛ ما يفيد أنَّ الفضاء كلّه مجال لأنْ تسبح فيه؛ وهو ما يعضد مشهد القدرة ويجليه.

ولمَّا كان الأصل في الطيران صفّ الأجنحة، والقبض طارئ على البسط للاستظهار به على التحرّك، جيء بما هو ثابتٌ بصيغة الاسم على وزن فاعل

---

[٤٤] يُنظر: الفروق اللغويَّة، لأبي هلال العسكري، (ص٧٥-٧٦).

[٤٥] يُنظر: التحرير والتنوير، (٣٩/٢٩).

"صافات"؛ "لأنَّ الصفّ هو أكثر أحوالها عند الطيران، وجيء بما هو طارئ على الأصل بلفظ الفعل الدالّ على التجدّد تارة بعد تارة: ويقبضن"[٤٦].

وجملة الاستفهام وما وليها، تعدّ مهادًا وسبيلًا لتقرير حقيقة القهر والقدرة في الجملة بعدها ؛ "أيّ: ما يمسكهنّ في الجوّ في حالة القبض والبسط عن السقوط على الأرض على خلاف ما يقتضيه الطبع إلَّا الرحمن"[٤٧]؛ وهذا ما أفاده القصر بـ"ما وإلَّا"؛ فتلك من الأمور التي اختصّ بها الله وحده، فليس لأحدٍ قدرة فيها؛ فهي ضعيفة في نفسها؛ لولا ما أمدّه بها خالقها من قوًى أوجده فيها؛ وهو ما يُلمح من سياق التعبير بصيغة التأنيث: "صافاتٍ ويقبضن". وهو من التدبير المحكم الناظر إلى عموم الرحمة؛ ولذا قال: "الرحمن"؛ أي: الملك الذي رحمته عامَّة لكلّ شيء؛ بأنْ هيَّأهنَّ بعد أن أفاض عليهنَّ رحمة الإيجاد على أشكالٍ مختلفة وخصائص متفرّقة للجري في الهواء؛ بما أوجد لها من القوادم والخوافي وغير ذلك من الهيئات المقابلة لذلك[٤٨]؛ وكذا العالم أجمع، فلو أمسك عن حفظه طرفة عين، لفسد وتداعى نظامه وزُلزلت أركانه!.

وفي هذا كلّه إيماء للمشركين والمكذّبين الضالين، بأنَّ الذي أمسك الطير عن السقوط المفضي إلى الهلاك، هو الذي أهلك عادًا والقرون الأولى، وليس ذلك عنهم ببعيد؛ ولو أنّهم أطاعوه واتبعوا النبي الذي يدعوهم إلى النجاة، لأنجاهم وحفظهم بحفظه وعينه التي لا تنام، كما أنجى هذي الطير السابحة في جوّ السماءِ من السقوط[٤٩].

ولمـَّا كان إمساك الطير في الجوّ، كإمساك سائر الدواب على الأرض، وكإمساك الأرض وسائر الأجرام في أفلاكها؛ قال تذييلًا للآية بما يناسب سياقها -ودفعًا لما قد يتوهّمه أصحاب العقول القاصرة، من أنَّ مشهد الخلق والحفظ مختصّ بالطير دون سواها ممَّن خلقٌ ؛ والبصير هنا بمعنى العليم؛ أي: "بالغ البصر والعلم بظواهر الأشياء وبواطنها"[٥٠]؛ فعلمه شاملٌ لكلّ شيءٍ دون حصر؛ وهو معنًى مستفاد من "كلّ" التي تُفيد العموم، ومن إضافتها إلى "شيء" على جهة التنكير؛ ثمَّ من تقديم:

---

[٤٦] الكشَّاف، (ص١١٢٨)؛ وينظر: تفسير البيضاوي، (٢٣٠/٥-٢٣١)؛ التحرير والتنوير، (٣٩/٢٩)؛ نظم الدرر، (٢٥٢/٢٠).

[٤٧] تفسير أبي السعود، (٨/٩)؛ نظم الدرر، (٢٥٢/٢٠-٢٥٣).

[٤٨] ينظر: الكشّاف، (ص١١٣٧)؛ تفسير البيضاوي، (٢٣١/٥)؛ تفسير أبي السعود، (٨/٩).

[٤٩] يُنظر: التحرير والتنوير، (٣٩/٢٩).

[٥٠] نظم الدرر، (٢٥٣/٢٠-٢٥٤).

"كلّ شيءٍ" على متعلّقه؛ لإفادة القصر والاختصاص بذلك دون سواه؛ وردًّا على من يزعم بخلاف علمه –سبحانه- بكلِّ شيء.

فالخطاب القرآني –كما نرى- قد اتكأ في السورة على تقنية الاستفهام، ومدّ حبالها إلى آفاقٍ دلاليَّة خلاقةٍ رحبة؛ ممَّا شكّل -على ما أمضينا القول- بنية أسلوبيَّة بارزة على الصعيد الدلالي والفنّي؛ فها هو الخطاب القرآني لازال يأخذ بأيدينا، ويسرح بعقولنا في مشاهد يحوطها التهديد والرهبة؛ متّخذًا من البنى الاستفهاميَّة –في سلسلةٍ من الآيات متلاحمة متّصلة- مدخلًا يلج منه إلى تصوير مشاهد جديدة من مشاهد القهر والقدرة؛ فيقول: أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُم مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ. أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ [الملك ٢٠-٢١].

و"أم" –في الآية- منقطعة مقدّرة بـ"بل"؛ وهي للإضراب والانتقال من توبيخ المشركين على ترك التأمّل في ما يشاهدونه من عجائب خلق الطير وأحوالها؛ إلى التبكيت والتقريع بما ذكر، والالتفات للتشديد في ذلك[٥١]؛ فوجَّه إليهم الخطاب –في الآية الأولى- على أنْ يشيروا إلى أحدٍ هو ناصرهم من بأس الله، إن حلّ بديارهم أو نزل بهم. ووجّهه إليهم -في الثانية- في تعيين رازق غير الله يرزقهم، إن أمسك –عن خلقِه- أسباب رزقه!.

ولمـّا لم يكن في وسعهم تعيين أحد لذلك، فقد خرج الاستفهام -في الآيتين- إلى التحدي والتعجيز عن التعيين، فيقع مع ذلك انتفاء النصرة وإيجاد سبل الرزق من دون الله.

ولقد تآزرت المعطيات اللغويَّة الواردة في سياق جملة الاستفهام –في الآيتين- على تحقيق جملة المعاني التي خرج إليها، والتي بها تتحقّق مقاصد الخطاب؛ فأحدث إدغام الميمين المتولّدة من "أم" و"من" الاستفهامية–فضلًا عن تسهيل النطق- صوتًا يشيع فيه معاني القهر والهيمنة والغلبة، ويتّسق –في الآن نفسه- مع مقام التحدّي والتهديد والتعجيز؛ الذي يحمل في سياقه معاني التحقير والتهوين من شأن المشار إليه، بإردافه باسم الإشارة "هذا". وللمخاطب أن يقدّر الفرق بين الخطاب في قوله: "أمَّن هذا" بإدغام الميمين، وبين قولنا: " أمْ مَن هذا" دون إدغام، أو دون ذكرٍ لها: "مَنْ هذا". ولا خلاف في أنَّه من اليسير على متلقي الخطاب إدراك القوَّة، التي يولّدها إدغام المتماثلين؛ كما بوسعه إدراك الرّقة بخلوّها؛ فنفسه تقسو أو ترقّ؛ وتنفصل أو تتحدّ؛ وفقًا لما تمليه عليه قراءة الخطاب، وما يوحي به من دلالة.

---

[٥١] تفسير أبي السعود، (٨/٩).

ولو تأمَّلنا جملة الاستفهام مرَّة ثانية: أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ ، لوجدنا أنَّ الخطاب القرآني هنا، لم يجرِ على نسق الآية الثانية؛ من مجيء الفعل تاليًا للموصول ؛ وإنَّما عدل بالسياق فجاء بجملة اسمية، جاعلًا منها صلة للموصولِّ؛ ذاك لأنَّ النصر يعوزه تهيّؤ واستعداد دائم، ومظنَّة النفرة والترقّب في كلّ حين إذا دعيَ إليه؛ ما يعني أنَّ الجند حاصلٌ عند الطلب وداعي النصرة؛ ولأجل ذا جيء بالفعل بعدها بصيغة المضارع: "ينصركم"، ما يلزم معه تجدد فعل النصر ودوامه. "فهذا هو وجه الجمع بين جملة: "الذي هو جندٌ لكم"، وجملة: "ينصركم". فلم يُستغن بالثانية عن الأولى"[٥٢]. وممَّا يعضد معنى التحدي، الذي يُنبئ به مساق الاستفهام في الآية –على ما أشرنا- الجمع بين الحرف: "من" والظرف: "دون"؛ تنبيهًا على ظهوره واستعلائه فوق كلّ شيء؛ فليس في وسع أحد "أن ينازعه في ذلك، ولا في أنَّه مستغرق لكلّ ما دونه من المراتب"[٥٣]؛ فلولا رحمته –سبحانه- التي أحاط بها البشريَّة، والتي كتبها على نفسه؛ لأهلك من عليها!.

وجيء بالصلة فعلًا مضارعًا في الثانية: "يرزقكم"؛ لأنَّ حاجة الناس إلى الرزق دائمة متجدّدة. وفي التعبير بفعل "الإمساك"، دليل قهرٍ وقوَّةٍ واستحواذ؛ وهو ما يتساوق مع دلالة التهديد والتحدّي، الذي يتضمنه الاستفهام في بعض معانيه. كما أنَّ في إسناد "الرزق" إلى ضمير الغيبة، العائد إليه –سبحانه- ما يدلّ دلالة بيّنة على أنَّ رزق البشر كلّه "معقود بإرادة الله في أوَّل أسبابه، وفي تصميم هذا الكون، وفي عناصر الأرض والجوّ!. وهي أسباب لا قدرة للبشر عليها إطلاقًا، ولا تتعلّق بعملهم بتاتًا؛ فهي أسبق منهم في الوجود، وهي أكبر منهم في الطاقّة، وهي أقدر منهم على محو كلّ أثر لهم حين يشاء!!" [٥٤]. وفي الآية "تصويرٌ لحقيقة النفوس التي تعرض عن الدعوة إلى الله في طغيانٍ عات، وفي إعرضٍ نافر، وتنسى أنَّها من صنع الله، وأنَّها تعيش على فضله، وأنَّها لا تملك من أمر وجودها ورزقها شيئًا على الإطلاق!" [٥٥].

و"بل" في قوله: بَلْ لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ؛ للإضراب أو الإبطال عمَّا تضمَّنه الاستفهامان السابقان، أو للانتقال من غرض التعجيز إلى الإخبار عن عنادهم. ووقع ما بعدها جوابًا لسؤال ناشئ عن كلّ ما ورد في السورة من الدلائل والقوارع والزواجر والعظات إلى هنا؛ فيتّجه السائل أن يقول: لعلّهم نفعت عندهم الآيات

---

[٥٢] تفسير ابن عاشور، (٤٢/٢٩).
[٥٣] نظم الدرر، (٢٥٣/٢٠).
[٥٤] في ظلال القرآن، (٢٩، ٣٦٤٣).
[٥٥] المرجع السابق، (٣٦٤٤/٢٩).

والنذر، واعتبروا بالآيات والعبر، فأجيب بإبطال ظنّه، بأنَّهم لجّو في عتوٍّ ونفور!(٥٦).

ولايزال القرآن يوالي خطابه الإنشائي عبر تقنية الاستفهام، فيقول أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[الملك:٢٢ ].

والاستفهام –في الآية- متّصل بما قبله مفرّع عنه؛ كما تدلّ على ذلك "الفاء" التي وليت الهمزة، والتي أفادت الترتيب على ما ظهر من سوء حالهم، وخرورهم في مهاوي الغرور، وركوبهم متن عشواء العتو والنفور، وعدم اهتدائهم في مسلك المحاجَّة إلى جهة يتوهم فيها رشد. و"أمّ" فيها حرف عطف؛ وهي "أم" المعادلة لهمزة الاستفهام(٥٧)؛ وقد تآزرت مع ما قبلها في رسم أبعاد الصورة، والإحاطة بجوانبها؛ فصوّرت حال المشرك الضالّ في تقسّم أمره بين الآلهة؛ طلبًا للذي ينفعه منها، الشاكّ في انتفاعه بها، بحال السائر في أرضٍ معوجَّة ملتوية، ليس لها طريق جادّة؛ فهو يعثر في كلّ ساعة، ويخرّ على وجهه في كلّ خطوة!. وفيها تصوير كذلك لحال المؤمن الموحّد الواثق بنصر ربّه وتأييده، وبأنّه مصادف للحقّ، بحال الماشي على جادَّةٍ واضحةٍ سويَّة، لا ينظر إلَّا إلى اتجاه وجهه؛ فهو سالمٌ من الخبط والعثار(٥٨).

وغنيٌّ عن البيان، بأنَّ الاستفهام في الآية –على غرار ما سبقه- ليس بحاجةٍ لجواب؛ وإنَّما هو سؤال التقرير والإيجاب؛ فمن يشكّ في أنَّ حياة الإيمان هي حياة الاستقامة والثبات على الصراط المستقيم، وحياة الكفر هي حياة العثار والسقوط والتردِّي في مهاوي الهلاك والضلال.

وعلى ذكر الضلال والهدى، وما كان من عتوّهم ونفورهم، جاء التذكير بما أودعه الله فيهم من وسائل الإدراك، التي عطّلوها، فلم ينتفعوا بها، ولم يقوموا بشكرها ورعايتها. وتذكيرهم أيضًا بأنَّ خلقهم ونشأتهم ما كان عبثًا ولا سدى؛ وإنَّما ابتلاء؛ ليعلم المحسن من المسيء، على ما ذكره في أوَّل السورة ، ثمَّ ليكون الحساب والجزاء بعد الرجعة إليه: قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [الملك:٢٤ ]. وهنا، وعلى ذكر الحشر والمآل، يأتي سؤال المكذِّبين الضالين: قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[الملك:٢٤ ]. ومعلوم أنَّ المشركين لم يكونوا يؤمنون ببعثٍ ولا نشور؛ وجحدوا ذلك وأنكروه أيَّما إنكار؛ بل وتعجّبوا من إنذار

(٥٦) يُنظر: التحرير والتنوير، (٤٤/٢٩).
(٥٧) يُنظر: تفسير أبي السعود، (٨/٩).
(٥٨) ينظر: الكشّاف، (ص١١٢٧)؛ تفسير البيضاوي، (٢٣١/٥)؛ الجامع لأحكام القرآن، (١٢٩/٢٩)؛ تفسير أبي السعود، (٩/٩)؛ التحرير والتنوير، (٤٤/٢٩-٤٥).

القرآن لهم به؛ ولذا كان سؤالهم –كما يحكي ظاهر الخطاب- سؤال الشاكّ المستريب، الهازئ المتهكّم، المعرض المستبعد، الذي لم تنفع فيه الآيات ولا النذير!.

ولقد أدَّى نظم الخطاب دوره في إخراج موقفهم المتعنّت بكلّ تداعياته وملابساته؛ فحكى تشكّكهم وارتيابهم بصيغة المضارع: "يقولون"، التي تقتضي الاستمرار وتكرير مقالهم المتبجّح طيلة دعوة النّبي الكريم لهم؛ كما توحي بدأبهم على ذلك استهزاءً وتكذيبًا. وتمعن الآية في تصوير أبعاد ذلك الاستهزاء، الذي لا يقف بهم عند حدّ، بقولهم "الوعد"؛ استهانةً بأمر الساعة، واستنجازًا لوعدها؛ حتّى كأنَّها باتت عندهم من قبيل الوعد الحسن!!. وتأتي خاتمة السؤال بما يدعم الغرض منه ؛ فهو قولٌ في ظاهره طلب الإخبار بطلب الأمر المتوعّد به، وفي باطنه الاستعجال به استهزاءً وتكذيبًا. كما أنَّه يحمل معنى التحدّي، الذي يؤول إلى الشكّ في التصديق بصحته والقطع بوقوعه. وفيه كذلك إيهام بأنَّ ما يسألون عنه؛ ممَّا اطلع الله عليه أحدًا من خلقه[٥٩].

ذلك الارتياب في سؤالهم عن قيام الساعة، والذي حكته جملة خطابهم –كما عبّر عنه القرآن-بكلّ ما تحمله من تهكمٍ واستهزاء واستبعاد لشيءٍ يكون من وعيدها وأهوالها، نرى القرآن يجيبهم عليه في حزمٍ يبدّد عنه غياهب الشكّ، ويقطع ما تردّده ألسنتهم استهزاءً وعُلوًّا؛ فإذا هو يجيبهم على خلاف مرادهم، وعلى ظاهر الاستفهام عن وقت الوعد على طريقة الأسلوب الحكيم قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[الملك:٢٤ ]؛ بردّ العلم بوقت وقوعه وقصر الإحاطة بعلمه على الله وحده دون سواه؛ فليس من الحكمة ولا هو من البصيرة النافذة الإعلام بميقاته؛ إذ لا تأثير له على العمل، ولا ما يُطالب به الخلق من عبادةٍ وتكاليف؛ استعدادًا ليوم الحساب. وفي تحويل جهة الخطاب والالتفات إلى نبيّه محمَّد –صلَّى الله عليه وسلَّم- دفعًا لإيهام محصّل من قولهم في سياق سؤالهم ، بأنَّ الله قد أطلع على وقته أحدًا من خلقه؛ ومنهم نبيّه؛ كما يؤكّد ذلك النصيف الآخر من الآية: وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ؛ من قصر مهمّته على الإنذار، بما أيَّده الله به من دلائل بيّناتٍ على صدق نبوّته، وصدق ما جاء به من عند ربّه؛ فليس له أن يتجاوز وظيفة الإنذار، وما تقتضيه من الوقوف عن حدّ البلاغ، إلى أنْ يكون عالمًا بوقت وقوعه.

ولم يقف القرآن في جوابه على سؤالهم المتهكم عند ذلك؛ بل واجههم في تصويرٍ مباغت، ومفاجأة شعوريَّة، تصف حالهم لمَّا رأوا ما يوعدون حاضرًا أمامهم دون مهادٍ وترقّب؛ فإذا وجوههم قد علتها الكآبة، وارتسم عليها الذلّ والندامة فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ [الملك:٢٧ ].

---

[٥٩] يُنظر: نظم الدرر، (٢٦٣/٢٠).

وتوجّه –في السياق نفسه- بالخطاب إليهم؛ زيادة في تقريعهم وتأنيبهم، وردًّا صارمًا لا هوادة فيه ولا رحمة على ما كان من استعجالهم لهذا الوعد، وطلب العلم بوقته، طلب من لا يبالي بذلك بوجه: فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ[الملك:٢٧ ].

وهكذا جرّ سؤالهم المتبجّح عليهم من الويل والثبور ما لم يكونوا يحتسبون؛ من ذكر حالهم حين يرون العذاب، وحين يأتيهم صدق ما كانوا يوعدون.

ويحتشد آخر السورة بسلسلةٍ أخرى من البنى الاستفهاميَّة، تتعالق مع ما سبقها، وتتناصر في –الآن نفسه- مع المغزى العامّ الذي بُنيت عليه السورة؛ من إقرار حقيقة الملك التامّ، وحقيقة القدرة المطلقة لله ربّ العالمين؛ متّخذًا منها مفتتحًا للآية وخاتمة لها: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ۝ [الملك: ٢٨-٣٠ ].

فعلى ذكر الوعد الذي ينتظر الكافرين، وأنَّ النبي -صلَّى الله عليه وسلّم- ما هو إلَّا نذير من ربّه، يأتي ذكر تمنّيهم لهلاك النبي ومن آمن معه(٦٠)، وسعيهم في ذلك كلّ سعي؛ تقديرًا من تلقاء أنفسهم، بأنَّ في هلاكه منجاة لهم من هول ما كان ينذِرُ به من الوعيد؛ وهنا أمره الله بأنْ يعرّفهم حقيقة تدحض أمانيهم، وتسفّها أدراج الرياح؛ وهي أنَّ موت أحد أو حياته، لا يغني عن غيره ما جرّه إليه عمله، وقد جرّت إليهم سوء صنائعهم غضب الله ووعيده؛ فهو نائلهم امتدّ الأجل بالرسول أو بادرته يد المنون(٦١). وحذَّرهم عاقبة أمرهم بإسناد الإهلاك إلى الله ؛ معبّرًا بالاسم الدال على تناهي العظمة إلى حدٍّ لا يدع لغيره منها شيئًا!؛ إعلامًا بأنّه على القطع؛ وبأنَّهم لا شيء في أيديهم، فهو لا يخافهم بوجه(٦٢).

والخطاب القرآني لا يقرّر هذه الحقيقة-كما هو شأنه في كثيرٍ من الحقائق- في تقريرٍ سافر؛ وإنَّما يصبّها في قالبٍ أسلوبي يناسب مقتضى الحال؛ ليُلهب به النفوس، ويوقظ به المشاعر، ويلفت إليه الأسماع، ويحرّك من خلاله الوجدان لمقتضيات الكلام؛ فيكون أرجى لقبوله والانتفاع به لمن كان له قلب.

والملمح الأوَّل في قوله: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ ، هو ورود الاستفهام في الآية مرّتين؛ في فاتحتها باستعمال أداة الاستفهام "الهمزة"، وفي خاتمتها باستعمال أداة الاستفهام "من". والاستفهام هنا –كغيره من البنى الاستفهاميَّة التي

---

(٦٠) يُنظر: الكشّاف، (ص١١٢٨)؛ الجامع لأحكام القرآن، (١٣٢/٢٩-١٣٣)؛ تفسير أبي السعود، (١٠/٩)؛ التحرير والتنوير، (٥١/٢٩).

(٦١) يُنظر: التحرير والتنوير، (٥١/٢٩).

(٦٢) يُنظر: نظم الدرر، (٢٧٦/٢٠-٢٧٨).

سبقته في السورة- خرج عن دلالته الظاهرة؛ إلى دلالةٍ جديدة يفصح عنها السياق؛ وهي توبيخ الكافرين والإنكار عليهم في اندفاعهم إلى أمنياتٍ ورغائب لا يجتنون منها نفعًا!؛ فيردّهم بسؤالهم إلى تدبّر حالهم، والتفكّر في شأنهم؛ فبدلًا من السعي في إهلاك من هو ساعٍ في خلاصهم من العذاب!؛ السعي فيما ينجِّي من عذابه.

وفي تَصدير الآية: بـ"قل"، ما يعطي مؤشِّر التنبيه على أنَّ الأمر صادر ممَّن بيده الخلق والأمر؛ وهو ما ينسجم مع مقاصد السورة؛ لما اشتملت عليه من باهر القدرة، ووافر العظمة. وفي توجيه الخطاب إلى المشركين: "أرأيتم"؛ بطلب الإخبار عمَّا يلفتهم إليه خبرًا كالرؤية في القطع به؛ ما يشحن العبارة ويزيدها إنكارًا وتقريعًا. كما أنَّ وقوع جملة الشرط في حيّز الاستفهام، أضفى على الدلالة –في موقعها- قوَّة، وأشربها معنى التحدِّي.

والقرآن الكريم –وعلى طريقته في الدعوة- يسلك مسلك التعريض والتلميح؛ لأنَّه –في كثيرٍ من الأحيان- أفعل في النفوس من التصريح؛ فلم يقل في سياق الاستفهام: (فمن يجيركم من عذاب الله)؛ فينصّ على أنَّهم كافرين؛ وإنَّما عمَّم في خطابه لهم، وعلّق الحكم بالوصف[٦٣]،استعطافًا لهم إلى إيقاع الإيمان في قلوبهم والتراجع عن الكفران من جهة؛ وتخويفًا لهم بما ينتظرهم من العذاب من جهةٍ ثانية. فلو واجههم بأنَّهم كافرون، وأنَّ العذاب نازلٌ بهم لا محالة؛ فربَّما تمادوا في غيِّهم، وأخذتهم العزَّة بالإثم، أمام الاتهام المباشر والتهديد السافر، الذي يتراءى لهم من ظاهر لغة الخطاب!.

وعند ذا، تغدو مزيَّة الاستفهام على طريقة التحقيق المألوفة؛ أنَّه سأل غيره عن هذه الحقيقة، ولم يزعمها، وأوكل إلى المخاطب الإجابة على السؤال؛ وهو يعلم أنَّه لن يجد بدًّا من التحقيق والتقرير؛ وهذا أوقع في أداء المعنى وأوثق؛ لأنَّ صاحب الصفة لا يدّعيها؛ وإنَّما يقرّ له غيره بها[٦٤].

وعلى فرض التسوية بين إهلاك النبي وصحبه أو رحمتهم، يأتي ترسيخ هذه الحقيقة في الآية التالية لها، مقرّرًا موقف المؤمنين من ربّهم؛ تعزيزًا للغرض القرآني، وتعرية لموقف المشركين المنكر : قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [الملك: ٢٩ ]. وفي ذكر "الرحمن" في سياق القول، دون ذكر لفظ الجلالة "الله"؛ ما يشي بمظنَّة أن تتعلّق بهم هذه الصفة، فيرحمهم الله في الدنيا والآخرة؛ لإيمانهم به، وتوكّلهم عليه وحده دون سواه. تلك الصفة التي كان ينكرها المشركون؛ كما صرَّح بذلك القرآن وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا [الفرقان:٦٠ ]. وبهذه

---

[٦٣] يُنظر: التحرير والتنوير، (٥٣/٢٩).

[٦٤] يُنظر: دلالات التراكيب، (ص٢٢٢).

التوطئة يقع الإيماء إلى الجانب المهتدي من الضالّ ؛ فالذين في ضلال هم من جحدوا وصف "الرحمن"، وتوكّلوا على أصنامٍ لهم، لا تنفع ولا تضرّ!.

وعلى إيقاع الاستفهام تختم السورة مداراتها السابحة في الآفاق، والكامنة في الأغوار، وفي أقطار مترامية من الأرض والسموات؛ فيلوّح لهم بعذابٍ في الدنيا قبل الآخرة؛ وذلك بحرمانهم من الماء، الذي وجوده سبب الحياة : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ [الملك:٣٠ ].

واللافت في الآية، أنَّها جرت في نظمها على نظم سابقتها؛ فافتتحت بالاستفهام: "أرأيتم"، متبوعًا بفعل الرؤية، ومسبوقًا بتوجيه الخطاب إلى الرسول: "قل"؛ مع دخول الشرط في حيّز الاستفهام، ومجيء الاستفهام فاصلة للآية. وممَّا يُلمح أيضًا في سياقها -خلافًا للآية السابقة- التصريح بخطاب التهديد والوعيد، وتوجيهه إلى المشركين مباشرة: "ماؤكم" و"يأتيكم"، دون تلميحٍ أو تعريض؛ زيادةً في تقريعهم وزجرهم وتبكيتهم. كما أنَّ وقوع المعنى تحت سلطةِ الاستفهام الإنكاري، الذي اكتنف السياق في أوَّله وآخره؛ ممَّا يعزّز الدلالة ويقويَّها؛ ويكسبها زيادة تقريعٍ وتوبيخٍ لشأنهم؛ إنْ كانوا -على كلِّ ما أُنذروا به- لايزالون يشكّكون في يوم المعاد، وصدقِ وقوعه.

وإمعانًا في زيادة الوعيد، قال: "إن أصبح"؛ لأنَّ تجلِّي النعمة في الصباح أجلى وأوضح؛ حيث إنَّه مظنَّة الفلاح وطلب النجاح؛ فيكون نزول المصاب فيه أفدح، وحلول النقمة فيه أشنع وأوقع. كما أنَّ رفعها إذا وقعت ليس في حيّز القدرة والإمكان؛ ولذا عدل بالسياق الذي تضمّنته جملة الاستفهام عن استعمال "غائرًا" إلى "غورًا"؛ بحيث تنتفي الحيلة في جلبه وإن جهدوا!. وفي مقابلته-"غورًا" بـ"معين"؛ تتجلى دلائل القدرة، وهيمنة الملك؛ فيلتقي -بذا- آخر السورة مع أوَّلها؛ في تقرير مقاصدها؛ فالذي بيده الإحياء والإماتة، بيده أن يقطع عنهم المـاء الذي يرونه نصب أعينهم جاريًا سهل المأخذ، والذي وجوده سبب الحياة، ومادّتها الأولى؛ وعدمـه سبب الموت والهلاك.

ومن أبرز النتائج التي خلص إليها البحث:

- شكّل الاستفهام في السورة بنية أسلوبيَّة بارزة على مستوى السورة كلّها؛ حيث ورد فيما يقارب نصف آيات السورة؛ وهو أمرٌ ينسجم مع أغراض السورة ومقاصدها؛ من قدرته -سبحانه-المطلقة، وتفرّده بالملك والألوهيَّة.
- بدت بنية الاستفهام أكثر وضوحًا في النصيف الثاني من السورة؛ وفي سلسلة تكاد تكون متّصلة؛ وهو أمر يتّسق مع مقاصد الدعوة إلى الله وتدرّجها في عرض الخطاب.

- فاق استعمال أداة الاستفهام "الهمزة" في السورة بقيَّة أدوات الاستفهام المستعملة في السورة؛ وذلك لمـا لها من خصائص وسمات تعبيريَّة ليست لأخواتها مجتمعة!.
- خرج الاستفهام على مستوى السورة كلَّها عن دلالاته الحقيقيَّة، إلى دلالاتٍ مجازيَّة رحبة.
- درس الاستفهام في السورة حسب سياقه؛ أسهم في الوقوف على الأبعاد الدلاليَّة والمجازيَّة التي خرج إليها الاستفهام، والكشف عن تآزره مع البنى الأخرى المصاحبة له في السياق في تحقيق مقاصد السورة وغاياتها.
- أكثر المعاني التي خرج إليها الاستفهام في السورة تُدرج تحت معاني الإنكار والتوبيخ والتهديد والتقرير؛ وهو أمرٌ ينساق مع مغزى السورة ومقصدها الأوَّل.
- تعدّد المعاني البلاغيَّة للجملة الاستفهاميَّة الواحدة؛ وفقًا لما يمليه السياق القرآني، مع إمكانيَّة انفتاحها على أكثر من معنى، واحتمالها لأكثر من دلالة.
- مجيء جملة الاستفهام فاصلة قرآنيَّة –في أكثر موضع- وهو ما أسهم في إيقاظ مكامن الحسّ عند المتلقي، واستثارة وجدانه، وتحريك مشاعره ومنافذ فكره نحو مقتضى الخطاب وموجبه.

**المصادر والمراجع**


١. الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق: مركز الدراسات القرآنيَّة، المملكة العربيَّة السعوديَّة: مجمع الملك فهد للطباعة المصحف الشريف.
٢. الأسلوب والأسلوبيَّة، عبد السلام المسدّي، بيروت: الدار العربيَّة للكتاب، ط٣،
٣. الأصوات اللغويَّة، إبراهيم أنيس، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريَّة، ط٣، ١٩٩٢م.
٤. البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: مكتبة دار التراث، ط٣، ١٤٤٠هـ-١٩٨٤م.
٥. البلاغة والأسلوبيَّة، محمد عبد المطلب، القاهرة: شركة أبي الهول للنشر، ط٥، ١٩٩٤م.
٦. تفسير البقاعي، المسمَّى نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مصر: دائرة المعارف العثمانيَّة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣.
٧. تفسير البيضاوي، المسمَّى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، إعداد وتقديم: محمد المرعشلي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، طبعة منقَّحة.
٨. تفسير أبي السعود، المسمَّى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٩. تفسير الزمخشري، المسمَّى بالكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: خليل مأمون شيخا، بيروت: دار المعرفة، ط٣، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
١٠. تفسير ابن عاشور، المسمّى التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسيَّة للنشر، ١٨٨٤م.
١١. تفسير القرطبي، المسمَّى الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمّنه من السنن وآي الفرقان، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي، بيروت: مؤسَّسة الرسالة، ط١، ١٤٢٧ه-٢٠٠٦م.
١٢. دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، جدَّة: مطبعة مدني.
١٣. دلالات التراكيب، محمَّد أبو موسى، القاهرة: مكتبة وهبة، ط ٢، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
١٤. شرح المختصر على تلخيص المفتاح، للخطيب القزويني، تحقيق: عبد المتعال الصعيدي، الأزهر: المطبعة المحموديَّة، ١٣٥٦هـ.
١٥. شرح المفصّل، لابن يعيش، تحقيق: جماعة من العلماء، مصر: المطبعة المنيريَّة.
١٦. الصاحبي في فقه اللغة العربيَّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها،لابن فارس، تحقيق: أحمد حسن بسج، بيروت: دار الكتب العلميَّة، ط١، ١٤١٨ه-١٩٩٧م.

١٧. علم الأسلوب والنظريَّة البنانيَّة، صلاح فضل، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
١٨. الفروق اللغويَّة، لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد سليم، القاهرة: دار العلم والثقافة.
١٩. في ظلال القرآن، سيّد قطب، القاهرة: دار الشروق، ط٣٢، ١٤٣٢هـ-٢٠٠٣م.
٢٠. لسان العرب، لابن منظور، بيروت: دار صادر، ط١.
٢١. المعجم الوسيط، إخراج: إبراهيم أنيس وآخرين، القاهرة: مجمع اللغة العربيَّة.
٢٢. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت: المكتبة العصريَّة، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
٢٣. مفاح العلوم، للسكّاكي، تحقيق: نعيم زرزور، بيروت: دار الكتب العلميَّة، ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.